على مائدة العقيدة

١٠

صيانة الآثار الإسلامية

جعفر السبحاني

بسم الله الرحمن الرحیم

صيانه الآثار الاسلاميه

كاتب:

جعفر سبحانی

نشرت فی الطباعهٔ:

مشعر

رقمی الناشر:

مرکز القائمیهٔ باصفهان للتحریات الکمبیوتریهٔ

الفهرس

صيانه الاثار الاسلاميه

اشارة

سرشناسه : سبحانی تبریزی، جعفر، - ۱۳۰۸

عنوان و نام پدیدآور : صیانه الاثار الاسلامیه/ جعفر السبحانی

مشخصات نشر : ۱۳۷۵؟]. مشعر

مشخصات ظاهری : ص ۸۷

فروست : (علی مائده العقیده۱۰)

وضعیت فهرست نویسی : فهرستنویسی قبلی

یادداشت : عربی

یادداشت : کتابنامه به‌صورت زیرنویس

موضوع : آرامگاهها -- عربستان سعودی

موضوع : تمدن اسلامی -- حفظ و نگهداری

رده بندی کنگره : DS۲۱۱/س۲ص۹

رده بندی دیویی : ۹۵۳/۰۲

شماره کتابشناسی ملی : م۷۷-۶۱۴۲

ص:۱

اشارة

ص:۲

ص:۳

ص:۴۰

تقدیم

قال اللَّه تعالی:

«فِی بُیُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَیُذْکَرَ فِیهَا اسْمُهُ یُسَبِّحُ لَهُ فِیهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ». النور/ ۳۶

وقال عزّ من قائل:

«فَقَالَ ابْنُوا عَلَیْهِمْ بُنْیَاناً رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِینَ غَلَبُوا عَلَی أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَیْهِمْ مَسْجِداً» الکهف/ ۲۱

«لمّا قرأ رسول اللَّهصلی الله علیه و آله و سلم قوله تعالی: «فِی بُیُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ» فقام إلیه رجل قال: أیّ بیوتٍ هذه یا رسول اللَّه؟ قال: بیوت الأنبیاء، فقام إلیه أبو بکر وقال: یا رسول اللَّه وهذا البیت منها- مشیراً الی بیت علیٍّ وفاطمة-؟ فقال النبیصلی الله علیه و آله و سلم:

نعم، من أفاضلها». الدرّ المنثور ۶: ۲۰۳

ص:۵

بسم اللّه الرحمن الرحيم

وبه وحده نستعين وعليه وحده نتوكل

والحمد للّهربّ العالمين، والصَّلاة والسلام على سيد رُسُله، وخاتم أنبيائه وآله ومن سار على خطاهم وتبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

يهتم المسلمون اهتماماً كبيراً بالعقيدة الصحيحة لأنّها تشكّل حجر الزاوية فى سلوكهم ومناراً يضىءُ دروبهم وزاداً لمعادهم.

ولهذا كرّسَ رسُولُ اللّهصلى الله عليه و آله و سلم فى الفترة المكيّة من حياته الرسالية نفسه لإرساء أُسس التوحيد الخالص، ومكافحة الشرك والوثنية، ثم بنى عليها فى الفترة المدنيةصَرحَ النظامِ الأخلاقى والاجتماعى والاقتصادى والسياسىّ.

ولهذا- ونظراً للحاجةِ المتزايدة- رأينا أن نقدّم للأُمةِ الإسلاميّة الكريمة دراسات عقائدية عابرة مستمدَّةٍ من كتاب اللَّهِ العزيز، والسُنّةِ الشريفة الصحيحة، والعقل السليم، وما اتَّفق عليه علماءُ الأُمةِ الكرام، واللّه الموفّق.

معاونيّة التعليم والبحوث الإسلاميّة

ص:۶

ص:۷

الآثار الإسلاميّة ونتائجها الإيجابيّة

الأُمم الحيّة المهتمّة بتاريخها تسعى إليصيانة كلّ أثر تاريخيّ لهصلة بماضيها، ليكون آيةً على أصالتها وعَراقتها فى العلوم والفنون، وأنها ليست نبتة بلا جذور أو فرعاً بلا أُصول.

والأُمة اليقظة تحتفظ بآثارها وتراثها الثقافىّ والصناعىّ والمعمارىّ وما له علاقة بسابقها ممّا ورثته عن أسلافها،صيانةً لكيانها وبَرهنةً على عزّها الغابر.

وقد دعت تلك الغايةُ السامية الشعوبَ الحيّة لإيجاد دائرة خاصّة فى كلّ قطر لحفظ التراث والآثار: من ورقة مخطوطة، أو أثر منقوش على الحجر، أو إناء، أو منار، أو أبنية، أو قِلاع وحصونٍ، أو مقابر ومشاهد لأبطالهم وشخصيّاتهم الذين كان لهم دور فى بناء الأُمة وإدارة البلد وتربية الجيل، إلى حدّ يُنفقون فى سبيلها أموالًا طائلة، ويستخدمون عمّالًا وخُبراء يبذلون سعيهم فى حفظها وترميمها وصيانتها عن

ص:٨

الحوادث.

إنّ التراث بإطلاقه آية رُقيّ الأُمة ومقياس شعورها ودليل تقدّمها فى معترك الحياة.

والجدير بالذكر أنّ الشخصية البارزة إذا زارت بلداً وحلّت فيه ضيفاً، يجعل فى برنامجها زيارة المناطق الأثرية والمشاهد والمقابر العامرة التى ضمَّت جثمانَ الشخصيّات التى تنبضُ الحياة الراهنة بتضحياتهم ومجاهدتهم من غير فرق بين دولةٍ إلهيّة أو علمانيّة.

هذا هو موجز الكلام فى مطلق الآثار، وهَلُمَّ معى ندرس أهميّةصيانة الآثار الإسلامية التى تركها المسلمون من عصر الرسول إلى عصرنا هذا فى مناطق مختلفة.

لا شكّ أنّ كلّ أثر يمتّ للإسلام والمسلمين بوجه من الوجوه بصلة، له أثره الخاصّ فى التدليل على أنّ للشريعة الإسلامية وصاحبها حقيقة، وليست هى ممّا نسجَتْها يدُ الخيال أوصنعتها الأوهام.

وبعبارة واضحة: الآثار المتبقيّة من المسلمين إلى يومنا هذا تدلُّ على أنّ للدعوة الإسلامية وداعيها واقعيّة لا تُنكر، وأنّه بُعِثَ فى زمن خاص بشريعة عالميّة، وبكتاب معجز تحدّى به الأُمم، وآمن به لفيف من الناس.

ثمّ إنّه هاجر من موطنه إلى يثرب، ونشر شريعته فى الجزيرة العربيّة، ثمّ اتّسعت بفضل سعى أبطالها ومعتنقيها إلى سائر المناطق، وقد قدّم فى سبيلها تضحيات، وتربّى فى أحضانها علماء وفقهاء وغير ذلك.

فهذه آثارهم ومشاهدهم وقبورهم تشهد بذلك.

ص:۹

فصيانةُ هذه الآثار على وجه الإطلاق تُضفى على الشريعة فى نظر الأغيار واقعية وحقيقة، وتزيل عن وجهها أىّ ريب أو شكٍّ فيصحّة البعثة والدعوة، وجهاد الأُمّة ونضال المؤمنين.

فإذا كانت هذه نتيجةُ الصيانة، فإنّ نتيجة تدميرها وتخريبها أو عدم الإعتناء بها مسلَّماً عكس ذلك.

ومع الأسف نرى الأُمّة الإسلامية ابتُليت فى هذه الآونة بأُناس جعلوا تدميرَ الآثار وهدمها جزءاً من الدين، والاحتفاظ بها ابتعاداً عنه، فهذه عقليّتهم وهذا شعورهم، الذى لا يقلّ عن عقلية وشعور الصبيان، الذين لا يعرفون قيمة التراث الواصل إليهم عن الآباء، فيلعبون به بين الخرق والهدم وغير ذلك.

لا شكّ أنّ لهدم الآثار والمعالم التاريخية الإسلامية وخاصّة فى مهد الإسلام: مكة، ومهجر النبى الأكرمصلى الله عليه و آله: المدينة المنوّرة، نتائج وآثار سيّئة على الأجيال اللّاحقة التى سوف لا تجد أثراً لوقائعها وحوادثها وأبطالها ومفكّريها، وربّما تنتهى بالمآل إلى الاعتقاد بأنّ الإسلام قضيّة مفتعلة، وفكرة مبتدعة ليس لها أىّ أساسٍ واقعى تماماً.

فالمطلوب من المسلمين أن يُكوِّنوا لجنة من العلماء من ذوى الاختصاص للمحافظة على الآثار الإسلامية وخاصة النبويّة منها، وآثار أهل بيته، والعناية بها وصيانتها من الاندثار، أو من عمليات الإزالة والمحو، لما فى هذه العناية والصيانة من تكريمٍ لأمجاد الإسلام وحفظ لذكريات الإسلام فى القلوب والعقول، وإثبات لأصالة هذا الدين، إلى جانب ما فى أيدى المسلمين من تراث ثقافى وفكرى عظيم.

ص:۱۰

وليس فى هذا العمل أىُّ محذور شرعى، بل هو أمر محبَّذ، اتّفقت عليه كلمة المسلمين الأوائل كما سيوافيك.

فالسلف الصالح وقفوا- بعد فتح الشام- على قبور الأنبياء ذات البناء الشامخ .. فتركوها على حالها من دون أن يخطر ببال أحدهم وعلى رأسهم عمر بن الخطاب بأنّ البناء على القبور أمر محرّم يجب أنْ يُهدم، وهكذا الحال فى سائر القبور المشيّدة بالأبنية فى أطراف العالم.

وإنْ كنت فى ريبٍ من هذا فاقرأ تواريخَهم، وإليك نصّ ما جاء فى دائرة المعارف الإسلامية:

إنّ المسلمين عند فتحهم فلسطين وجدوا جماعة فى قبيلة «لخم» النصرانيّة يقومون على حرم إبراهيم ب «حِبْرون» «(۱)» ولعلّهم استغلّوا ذلك ففرضوا أتاوة على حجاج هذا الحرم ... وربما يكون توصيف تميم الدارى أن يكون نسبة إلى الدار أى الحرم، وربما كان دخول هؤلاء اللخميين فى الإسلام؛ لأنّه قد مكّنهم من القيام على حرم إبراهيم الذى قدّسه المسلمون تقديسَ اليهود والنصارى من قبلهم «(۲)».

وجاء أيضاً فى مادة «الخليل» يقول المقدسى- وهو أوّل من أسهب فى وصف الخليل-: إنّ قبر ابراهيم كانت تعلوه قُبّة بُنيت فى العهد الإسلامى.

ويقول مجير الدين: إنّها شُيّدت فى عهد الأمويين، وكان قبر إسحاق مغطّى بعضُه، وقبر يعقوب قباله، وكان المقدسى أول من أشار

۱- كلمة عبرية تعنى: مدينة الخليل.

۲- دائرة المعارف الإسلامية ۵: ۴۸۴ مادة تميم الدارى.

ص:۱۱

إلى تلک الهِبات الثمينة التی قدّمها الأُمراء الوَرِعون من أقاصی البلاد إلی هذا الضریح، إضافةً إلی الاستقبال الکریم الذی کان یلقاه الحجاج من جانب التمیمیین «(۱)».

ولو قام باحث بوصف الأبنیة الشاهقة التی کانت مشیّدة علی قبور الأنبیاء والصالحین قبل ظهور الإسلام وما بناه المسلمون فی عصر الصحابة والتابعین لهم بإحسان إلی یومنا هذا فی مختلف البلدان لجاء بکتاب فخم ضخم، ویَکشف عن أنّ السیرة الرائجة فی تلک الأعصار قبل الإسلام وبعده من عصر الرسول والصحابة والتابعین لهم إلی یومنا هذا کانت هی العنایة بحفظ آثار رجال الدین، الکاشفة عن مشروعیة البناء علی القبور، وإنّه لم ینبس أیّ شخص فی رفض ذلک ببنت شفة ولم یعترض علیها أحد، بل تلقّاها الجمیع بالقبول والرضا، إظهاراً للمحبّة والودّ لأصحاب الرسالات والنبوّات وأصحاب العلم والفضل، ومن خالف تلک السنّة وعدّها شرکاً أو أمراً محرّماً فقد اتّبع غیر سبیل المؤمنین، قال سبحانه: «وَمَنْ یُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَیَّنَ لَهُ الْهُدَی وَیَتَّبِعْ غَیْرَ سَبِیلِ الْمُؤْمِنِینَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّی وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِیراً» (النساء/ ۱۱۵).

الیوم وبعد مضیّ عشرین قرناً- تقریباً- علی میلاد السید المسیح علیه السلام تحوّل المسیح وأُمّه العذراء وکتابه الانجیل وکذلک الحواریون، تحوّلوا- فی عالم الغرب- إلی أُسطورة تاریخیة، وصار

۱- دائرة المعارف الإسلامیة ۸: ۴۳۱.

ص:۱۲

بعض المستشرقين يشكِّكون- مبدئياً- فى وجود رجل اسمه المسيح وأُمّه مريم وكتابه الإنجيل، ويعتبرونه أُسطورة خيالية تشبه أُسطورة «مجنون ليلى».

لماذا؟

لأنّه لا يوجد أىّ أثر حقيقىّ وملموس للمسيح، فمثلًا لا يُدرى- بالضبط- أين وُلِد؟ وأين داره التى كان يسكنها؟ وأين دفنوه بعد وفاته- على زعم النصارى أنّه قتل-؟

أمّا كتابه السماوى فقد امتدّت إليه يد التحريف والتغيير والتزوير، وهذه الأناجيل الأربعة لا ترتبط إليه بصلة وليست له، بل هى ل «متّى» و «يوحنّا» و «مرقس» و «لوقا»، ولهذا ترى فى خاتمتها قصّة قتله المزعوم ودفنه، ومن الواضح- كالشمس فى رائعة النهار- أنّها كتبت بعد غيابه.

وعلى هذا الأساس يعتقد الكثير من الباحثين والمحقّقين أنّ هذه الأناجيل الأربعة إنّما هى من الكتب الأدبيّة التى يعود تاريخها إلى القرن الثانى من الميلاد.

فلو كانت الميزات الخاصّة بعيسى محفوظة، لكان ذلك دليلًا على حقيقة وجوده وأصالة حياته وزعامته، وما كان هناك مجال لإثارة الشكوك والاستفهامات من قِبَل المستشرقين ذوى الخيالات الواهية.

أمّا المسلمون، فهم يواجهون العالَم مرفوعىّ الرأس، ويقولون: يا أيّها الناس لقد بُعثَ رجلٌ من أرض الحجاز، قبل ألف وأربعمائة سنة لقيادة المجتمع البشرى، وقد حقّق نجاحاً باهراً فى مهمّته، وهذه آثار

ص:۱۳

حياته، محفوظة تماماً فى مكة والمدينة، فهذه الدار التى وُلد فيها، وهذا غار حراء حيث هبط إليه الوحى والتنزيل فيها، وهذا هو مسجده الذى كان يُقيم الصلاة فيه، وهذا هو البيت الذى دُفن فيه، وهذه بيوت أولاده وزوجاته وأقربائه، وهذه قبور ذريّته وأوصيائه عليهم السلام.

والآن، إذا قَضينا على هذه الآثار فقد قضينا على معالم وجودهصلى الله عليه و آله ودلائل أصالته وحقيقته، ومهّدنا السبيلَ لأعداءِ الإسلام ليقولوا ما يريدون.

إنّ هدم آثار النبوّة وآثار أهل بيت العصمة والطهارة ليس فقط إساءة إليهم عليهم السلام وهتكاً لحرمتهم، بل هو عداء سافر مع أصالة نبوّة خاتم الأنبياء ومعالم دينه القويم.

إنّ رسالة الإسلام رسالة خالدة أبديّة، وسوف يبقى الإسلام ديناً للبشرية جمعاء إلى يوم القيامة، ولابدّ للأجيال القادمة- على طول الزمن- أنْ تعترف بأصالتها وتؤمن بقداستها.

ولأجلِ تحقيق هذا الهدف يجب أن نحافظ- أبداً- على آثارصاحب الرسالة المحمديةصلى الله عليه و آله لكى نكون قد خَطَوْنا خطوة فى سبيل استمرارية هذا الدين وبقائه على مدى العصور القادمة، حتى لا يشكّك أحد فى وجود نبىّ الإسلامصلى الله عليه و آله كما شكّكوا فى وجود النبىّ عيسى عليه السلام.

لقد اهتمَّ المسلمون اهتماماً كبيراً بشأن آثار النبى محمدصلى الله عليه و آله وسيرته وسلوكه، حتى أنّهم سجّلوا دقائق أُموره وخصائص حياته ومميّزات شخصيّته، وكلّ ما يرتبط بخاتمه، وحذائه، وسواكه، وسيفه، ودرعه، ورمحه، وجواده، وإبله، وغلامه، وحتى الآبار التى شرب منها

ص:۱۴

الماء، والأراضی التی أوقفها لوجه اللَّه سبحانه، والطعام المفضّل لدیه، بل وکیفیة مشیته وأکله وشربه، وما یرتبط بلحیته المقدّسة وخضابه لها، وغیر ذلک، ولا زالت آثار البعض منها باقیة إلی یومنا هذا «(۱)».

هذه کلمة موجزة عن موقف الموضوع عند العقلاء عامة والمسلمین خاصّة، فهلمّ معی ندرس المسألة فی ضوء الکتاب والسنّة حتی تتجلّی الحقیقة بأعلی مظاهرها، وإنّ صیانة قبور الأنبیاء والأولیاء والشهداء وتعمیرها وتشییدها بقباب، هی ممّا دعا إلیها الکتاب والسنّة النبویّة وسیرة المسلمین إلی أوائل القرن الثامن، عصر إثارة الشکوک حول هذا الموضوع وغیره، عصر ابن تیمیة (۷۶۱- ۷۲۸ ه) الذی أثار تلک الفکرة لتفریق کلمة الأُمّة، وتلقّی ذلک بالقبول وارث منهجه محمد ابن عبد الوهاب النجدی (۱۱۱۵- ۱۲۰۶ ه)، إلی أن أحیا منهج شیخه بعد الاندراس بفضل سیف آل سعود، وحمایتهم له لغایة نفسانیة لا تُنکَر.

وندرس الموضوع فی خلال فصول ولنقدِّم ما تدلّ علیه من الآیات.

جعفر السبحانی

۱- راجع طبقات الصحابة لابن سعد ۱: ۳۶۰- ۵۰۳ حول هذا الموضوع.

ص:۱۵

الفصل الأوّل: الاستدلال بالآیات

الآیۀ الأُولی: الإذن برفعِ بیوتٍ خاصۀ

اشارۀ

إذا کـان لصیانۀ الآثـار الإسـلامیّۀ ذلک التأثیر الکبیر الـذی اتّضـح للقارئ فی التقـدیم الماضـی، فعلینا اسـتنطاق کتاب اللَّه حولَ هـذا الموضوع حتی نقف علی حکم اللَّه فیه.

وسنشیر هنا إلی الآیات ذات الصلۀ الواضحۀ بالموضوع، والتی لا تتجاوز عن أربع آیات:

قـال سـبحانه: «فِی بُیُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَیُـذْکَرَ فِیهَـا اسْـمُهُ یُسَـبِّحُ لَهُ فِیهَا بِالْغُـدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ لَاتُلْهِیهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَیْعٌ عَنْ ذِکْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِیتَاءِ الزَّکَاةِ یَخَافُونَ یَوْماً تَتَقَلَّبُ فِیهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ» (النور/ ۳۶– ۳۷).

وللمفسّـرین حول هـذه الآیـۀ بحوث، منهـا: تعیین متعلّق الظرف، أعنی قوله: «فِی بُیُوتٍ»، فهـل هو متعلّق بما قبلها، أی قوله سـبحانه فی الآیۀ المتقدّمۀ علیها «کَمِشکوۀٍ» أی المشکاۀ فی بیوت، أو هو متعلّق

ص:۱۶

بفعل مقدّر يدلّ عليه لفظ «يُسَبِّحُ» فى الآية، ولا مانع من التكرار، أو متعلّق بشىء آخر مثل قوله: سبّحوا فى بيوت؟

إنّ المهم بيان أمرين:

الأول: ما هو المراد من هذه البيوت التى أذن أن ترفع؟

الثانى: ما هو المراد من الرفع فيها؟

أمّا الأول، فالمفسّرون فيه على أقوال.

۱- المراد المساجد الأربعة.

۲- مطلق المساجد.

۳- بيوت النبىّ.

۴- المساجد وبيوت النبىّ.

استفدنا هذه الأقوال من المصادر «(۱)»، والمهم تعيين المراد منها وفق الموازين الصحيحة فى تفسير الآية.

۱- إنّ القولين: الأول والثانى مبنيان على صحّة إطلاق البيت على المسجد، ولوصحّ ذلك لغة- ولن يصحّ كما سيوافيك- إلّاأنّه إطلاق شاذ، لا يصحّ تفسير القرآن بالاستعمال الشاذ، وذلك لأنّ البيت فى القرآن غير المسجد، فالمسجد الحرام غير بيت اللّه الحرام الذى جعله اللّه قياماً للناس «(۲)».

۱- الطبرى، التفسير، ۱۸: ۱۱۱ - ۱۱۲؛ السيوطى ۶: ۲۰۳؛ الزمخشرى، الكشاف ۲: ۳۹۰؛ الرازى، التفسير ۲۴: ۳؛ القرطبى، الجامع لأحكام القرآن ۱۲: ۲۶۶؛ ابن كثير، التفسير ۳: ۲۹۲؛ اسماعيل حقى البرسوى، روح البيان ۲: ۱۵۸؛ القاسمى، محاسن التأويل ۷: ۲۱۳؛ صديق حسن خان، فتح البيان ۶: ۳۷۲؛ أبو حيان، البحر المحيط ۶: ۴۵۸.

۲- المائدة: ۹۷.

ص:۱۷

۲- إنّ البيت لا ينفكّ عن السّقف لقوله تعالى: «وَقَرْنَ فِی بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّة» (الأحزاب/ ۳۳)، وقال سبحانه: «وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ» (الزخرف/ ۳۳)، وقال سبحانه: «فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا» (النمل/ ۵۲).

فهذه الآيات تدلّ على أنّ البيت لا ينفكّ عن السقف، بخلاف المساجد فإنّها ربما تكون مكشوفة بلا سقف، وهذا هو المسجد الحرام تراه مكشوفاً بلا سقف، ومعه كيف يمكن تفسير البيوت بالمساجد؟

۳- إنّ سورة النور التی وردت فيها هذه الآية تعتنی بشأن البيوت عامة، ويقول سبحانه: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَاتَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَداً فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ» (النور/ ۲۷- ۲۹) فقد تكرّر فی هذه الآيات ذكر البيوت ظاهراً ومستتراً سبع مرّات.

ثمّ إنّه سبحانه يسترسل فی ذكر البيوت فی الآية (۶۱) ويقول:

«لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أخوانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْصَدِيقُكُمْ لَيْسَ

ص:۱۸

عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» (النور/ ۶۱) فقد ذكر فيها البيوت عشر مرّات.

فالآيةُ قيدَ البحث وقعت بين هاتين الطائفتين من الآيات، أفيصحُّ لنا أن نفسّر قوله «فِي بُيُوتٍ» بالمساجد مع هذه الآيات الكثيرة التى تضمّنت استعمال البيت قبال المسجد؟

۴- إنّ من يُفسّر البيوت بالمساجد يعتمد على رواية موقوفة لابن عباس ومجاهد، لكنّها لا تقاوم ما ورد مسنداً عن النبيّ الأكرمصلى الله عليه و آله:

روى الحافظ السيوطى قال: أخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك وبريدة: أنّ رسول اللّه قرأ هذه الآية «فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ» فقام إليه رجل قال: أيّ بيوت هذه يا رسول اللّه؟ قال: «بيوت الأنبياء»، فقام إليه أبو بكر وقال: يا رسول اللّه وهذا البيت منها- مشيراً إلى بيت على وفاطمة- فقال النبى صلى الله عليه و آله: «نعم ومن أفاضلها» «(۱)».

ولأجل رجحان الحديث المسند على الموقوف، قال الآلوسى فى تفسيره بعد نقل الحديث: وهذا إنصحّ لا ينبغى العدول عنه «(۲)».

ولأجل بعض ما ذكرنا قال أبو حيان: الظاهر أنّ البيوت مطلق يصدق على المساجد والبيوت التى تقع الصلاة فيها وهى بيوت الأنبياء «(۳)».

۱- السيوطى، الدرّ المنثور ۶: ۲۰۳.

۲- الآلوسى، روح المعانى ۱۸: ۱۷۴.

۳- أبو حيان، البحر المحيط ۶: ۴۵۸.

ص:۱۹

وقد روی عن الإمام أبی جعفر محمد بن علیّ بن الحسین علیه السلام: أنّ المقصود بیوت الأنبیاء وبیوت علیّ علیهم السلام «(۱)».

۵- إنّ القرآن الکریم یعتنی ببیوت النبی وأهلها، یقول سبحانه:

«یَا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لَاتَدْخُلُوا بُیُوتَ النَّبِیِّ إِلَّا أَنْ یُؤْذَنَ لَکُمْ» (الأحزاب/ ۵۳) ویعتنی بأهلها ویقول: «إِنَّمَا یُرِیدُ اللَّهُ لِیُذْهِبَ عَنْکُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَیْتِ وَیُطَهِّرَکُمْ تَطْهِیراً» (الأحزاب/ ۳۳).

۶- وإذا راجعنا اللغة: نری أنّ أصحاب المعاجم یفسّرونه علی وجه لا ینطبق علی المسجد، یقول الراغب: أصل البیت مأوی الإنسان باللیل، لأنّه یقال: بات: أقام باللیل، کما یقال: ظلّ بالنهار، ثمّ قد یقال للمسکن بیت من غیر اعتبار اللیل فیه وجمعه أبیات وبیوت لکن البیوت للمسکن أخصّ والأبیات بالشعر «(۲)».

وقال فی اللسان: البیت معروف، وبیت الرجل داره، وبیته قصره، ومنه قول جبرئیل علیه السلام: بشّر خدیجةَ ببیتٍ من قصب، أراد: بشّرها بقصر من لؤلؤة مجوّفة أو بقصر من زمردة «(۳)».

فهذه القرائن لو تدبّر فیها المفسّر لأذعن أنّ المراد من «بُیُوتٍ» غیر المساجد، سواء أُرید منه المسجد الحرام ومسجد النبی والمسجد الأقصی ومسجد قبا، أو أُرید مطلق المساجد.

۷- أضف إلی ذلک أنّ تفسیر البیوت بالمساجد مروی عن کعب

۱- البحرانی، البرهان ۳: ۱۳۷.

۲- الراغب، المفردات: ۶۴ مادة بیت.

۳- ابن منظور، اللسان ۲: ۱۴ مادة بیت.

ص:۲۰

الأحبار، ذلك الحبر اليهودى الذى أدخل الإسرائيليّات فى السنن والأحاديث، روى ابن كثير قال: قال كعب الأحبار: مكتوب فى التوراة أنّ بيوتى فى الأرض المساجد «(۱)»، ولوصحّ أنّ ابن عباس أخذه عن كعب الأحبار كما يدّعيه علماء الرجال فى ترجمة كعب الأحبار فلعلّه أخذ منه، ومرويّات كعب إسرائيليّات لا يصحّ الاحتجاج بها.

غير أنّه ما تضافر عن النبى الأكرم خلاف ذلك، حيث قال:

«جُعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً» «(۲)»، فإذا كان جميع الأرض مسجداً للّه تبارك وتعالى فيكون جميعها معبداً ومسجداً.

۸- وربّما يتصوّر أنّ ذيل الآية الذى جاء فيه قوله «يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ» قرينة على أنّ المراد من البيوت هى المساجد، ولكنّه غَفِلَ عن أنّ شأن بيوت الأنبياء والأولياء والصالحين، شأن المساجد، فهم فيها بين قائم وراكع وساجد وذاكر.

وقد اعتنى النبىّ الأكرم بشأن البيوت، فقد عقد مسلم باباً فيصحيحه لاستحباب إقامة الصلاة النافلة فى البيت وروى فيه الروايات التالية:

أ- عن ابن عمر عن النبىّ (ص): «اجعلوا منصلاتكم فى بيوتكم ولا تتّخذوها قبوراً».

ب- عن ابن عمر عن النبى (ص): «صلّوا فى بيوتكم ولا

۱- ابن كثير، التفسير ۳: ۲۹۲.

۲- البخارى، الصحيح ۱: ۹۱ كتاب التيمم، ح ۲؛ البيهقى، السنن: ۴۳۳ باب أينما أدركتكالصلاة فصلّ فهو مسجد.

ص:۲۱

تتّخذوها قبوراً».

ج- عن جابر قال: قال رسول اللَّه (ص): «إذا قضى أحدكم الصلاة فى مسجده فليجعل لبيته نصيباً منصلاته فإنّ اللَّه جاعل فى بيته منصلاته خيراً».

د- عن أبى موسى عن النبى (ص): «مثل البيت الذى يذكر اللَّه فيه والبيت الذى لا يذكر اللَّه فيه مثل الحىّ والميّت».

ه- وعن زيد بن ثابت فى حديث: «فعليكم بالصلاة فى بيوتكم فإنّ خيرصلاة المرء فى بيته إلّاالصلاة المكتوبة» «(۱)».

و- روى أحمد أنّ عبد اللَّه بن سعد سألَ رسول اللَّه وقال: أيّما أفضل: الصلاة فى بيتى أو الصلاة فى المسجد؟ فقال: «فقد ترى ما أقرب بيتى من المسجد، ولأن أُصلّى فى بيتى أحبّ إلىّ من أن أُصلّى فى المسجد إلّاأن تكونصلاة مكتوبة» «(۲)».

فهذه القرائن المؤكدة ترفع الستار عن وجه المعنى، فإنّ المراد من الآية هو بيوت الأنبياء وبيوت النبىّ الأكرمصلى الله عليه و آله وبيت علىّ عليه السلام وما ضاهاها، فهذه البيوت لها شأنها الخاصّ؛ لأنّها تخصُّ رجالًا يُسبّحونه سبحانه ليلًا ونهاراً، غُدُواً وآصالًا، تعيش فيها رجال لا تُلهيهم تجارةٌ ولا بيع عن ذكر اللَّه وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وقلوبهم مليئة بالخوف من يوم تتقلّب فيه القلوب والأبصار.

۱- مسلم، الصحيح ۲: ۱۸۷- ۱۸۸ باب استئجار صلاة النافلة فى البيت.

۲- أحمد، المسند ۴: ۳۴۲.

ص:۲۲

ما هو المراد من الرفع؟

قد تعرّفت على المقصود من البيوت، فهلمّ معى ندرس معنى الرفع، ومن حسن الحظّ أنّ المفسّرين لم يختلفوا فيه اختلافاً موجباً لغموض المعنى، وذكروا فيه المعنيين التاليين:

الأول: إنّ المراد من الرفع هو البناء، بشهادة قوله سبحانه: «ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا» (النازعات/ ۲۸)، وقوله سبحانه: «وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلَ ...» (البقرة/ ۱۲۷).

الثانى: إنّ المراد هو تعظيمها والرفع من قدرها، قال الزمخشرى:

رَفْعُها: إمّا بناؤها، لقوله تعالى: «رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا» و «وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ ...» أمر اللَّه أن تُبنى، وإمّا تعظيمها والرفع من قدرها «(۱)».

وقال القرطبى: ترفع: تُبْنى وتعْلى «(۲)».

وقال اسماعيل حقى البرسوى: أن ترفع: بالبناء، والتعظيم ورفع القدر «(۳)».

وقال حسنصدّيق خان: المراد من الرفع، بناؤها «أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا» ورفع ابراهيم القواعد من البيت، وترفع أى تعظّم وتطهر من الأنجاس عن اللغو ولها مجموع الأمرين «(۴)»، إلى غير ذلك من الكلمات المتشابهة، ولا حاجة إلى ذكرها، إنّما المهم بيان دلالة الآية وتحقيقها.

۱- الزمخشرى، الكشاف ۲: ۳۹۰ بتصرّف يسير بإضافة كلمة« أما».

۲- القرطبى، جوامع الأحكام ۱۲: ۲۶۶.

۳- اسماعيل حقى البرسوى، روح البيان ۶: ۱۵۸.

۴- صديق حسن خان، فتح البيان ۶: ۳۷۲.

ص:۲۳

قد عرفت أنّ المراد من البیوت هو بیوت الأنبیاء والعترة والصالحین منصحابة النبیّ الأکرمصلی الله علیه و آله، فالآیة تأذن أن تُبنی هذه البیوت بناءً حسیاً وترفع من قدرها رفعاً معنویاً، فهنا نستنتج من الآیة أمرین:

۱- أنّ المراد من رفع البیوت لیس إنشاؤها، لأنّ المفروض أنّها بیوت مبنیّة، بل المراد هوصیانتها عن الاندثار، وذلک کرامة منه سبحانه لأصحاب هذه البیوت، فقد ترک المسلمون الأوائل بیوتاً للرسول الأکرم والعترة الطاهرة وللصالحین منصحابته وحرستها الدول الإسلامیة طیلة أربعة عشر قرناً، فعلی المسلمین قاطبة والدول الإسلامیّة عامّة بذل السعی فیصیانتها عملًا بالآیة المبارکة، والحیلولة دون تهدیمها بحجّة توسعة المسجد النبوی أو المسجد الحرام.

ولکن من سوء الحظّ، أو من تسامح الدول فی ذلک المجال أن هُدّمت هذه البیوت ودمّرت بمعاول الوهابیین، ومن هذه البیوت بیت الحسنین والصادقین علیهم السلام فی محلّة بنی هاشم، فلا تری لها أثراً، کما لا تری من بیت أبی أیوب الأنصاری مُضیّف النبیّ الأکرم أثراً، ومثلها مولد النبی فی مکة المکرّمة وغیرها.

فعلی المسلمین مسؤولیة إعادة هذه الأبنیة فی أماکنها عملًا بالآیة ورفع قدرها مهما أمکن، ولئنصارت الإعادة أُمنیة لا تُدرَک، مادام السیف علی هامة المسلمین فی أرض الوحی والتوحید، لکنصیانةُ ما بقی منها فی مختلف الأقطار أمرٌ ممکن.

۲- أنّ قسماً من البیوت فی المدینة المنوّرة مقابر ومشاهد

ص:۲۴

لهؤلاء، فقد دُفن النبیّ الأکرمصلی الله علیه و آله فی بیته.

کما أنّ بیت العسکریین یعنی الإمام علیّ الهادی والحسن العسکری فی سامرّاء بمثابهٔ مقابرهما ومشاهدهما، فلیس لأحد قلعها بمعاول الجور باسم التوحید، وأیّ توحید أعلی وأجل ممّا دعا إلیه الذکر الحکیم الذی یأمر بصیانهٔ بیوت هؤلاء مطلقاً، سواء کانت مقابرهم أمْ لا.

باللَّه علیک أیّها القارئ الکریم هل زرتَ بقیع الغرقد مراقدَ الأئمهٔ والصحابهٔ وزوجات النبی والشخصیّات الإسلامیّهٔ الکبیرهٔ، وهل شاهدت قیام الحکومهٔ بواجبها من رفع قدره وتنظیف أرضه، أم شاهدت النقیض من ذلک؟ وقد کانت بعض هذه القبور بیوت الصحابهٔ، ولعمری إنّ القلب لیحترق إذا رأی أنّ الوهابیین یتعاملون مع قبور أفلاذ کبد النبیّ وخیار أصحابه معاملهٔ العدوّ مع العدوّ، ونعم من قال:

لعمری أنّ فاجعهٔ البقیع یشیب لهولها فُود الرّضیع

لقد خرجنا فی دراسهٔ هذه الآیهٔ علی نتیجهٔ خاصهٔ، وهی أنّصیانهٔ بیوت الأنبیاء والأولیاء أمر ندب اللَّه سبحانه المسلمین إلیه، سواء کان فیها قبر أوْ لا، وأنّ رفعها بالبناء وصیانتها عن الانطماس وتنظیفها عن الرجس واللغو عمل بالشریعهٔ المقدّسهٔ، حیثُ نزل به الوحی وسار علیه المسلمون فی جمیع القرون.

ص:۲۵

الآیهٔ الثانیهٔ: اتّخاذ المساجد علی قبور المضطهدین‌فی سبیل التوحید

اشارهٔ

یـذکر سبحانه قصـهٔ أصـحاب الکهف، وأنّهم اعتزلوا قومَهم للحفاظ علی عقیدتهم ودینهم، حتی وافاهم الأجل وهم فی الکهف، وقد أعثر اللّه علیهم قوماً بعد ثلاثهٔ قرون وأطلعهم علیهم، یقول سبحانه:

«وَکَذلِکَ أَعْثَرْنَا عَلَیْهِمْ لِیَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَهَ لَارَیْبَ فِیهَا إِذْ یَتَنَازَعُونَ بَیْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَیْهِمْ بُنْیاناً رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِینَ غَلَبُوا عَلَی أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَیْهِمْ مَسْجِداً» (الکهف/ ۲۱).

ومعنی الآیهٔ أنّا أعثرنا علی أصحاب الکهف أهلَ المدینهٔ لیعلموا أنّ وعد اللّه بالبعث حقّ، فإنّ بَعْثَ هؤلاء بعد لَبْثهم ثلاثمائهٔ سنهٔ دلیل علی إمکان الحیاهٔ الثانویهٔ، لیعلموا أنّ الساعهٔ لا ریب فیها.

ثمّ إنّ القوم الذین أعثرهم اللّه علی أجسادهم اتّفقوا علی تکریمهم، ولکن اختلفوا فی طریقهٔ التکریم، کما یقول سبحانه: «إِذْ

ص:٢۶

يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ»، فظاهرُ المنازعة هو ما جاء بعد هذه الجملة بضميمة لفظة الفاء، فقال جماعة: «ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَاناً»، أى اجعلوا عليهم بنياناً كبيراً، ويدلّ على الوصف تنكير «بُنْيَاناً»، وقدصرّح الجوهرى وابن منظور بأنّ البنيان بمعنى الحائط «(١)»، ولذلك فسّره القاسمى بقوله:

أى باب كهفهم بنياناً عظيماً كالخانقاهات والمشاهد والمزارات المبنيّة علىالأنبياء وأتباعهم «(٢)»، تسترأجسادهم وتعظّمأبدانهم، ربهم أعلم بهم.

ولكن قال آخرون الذين غلبوا على أمر القائلين بالقول الأول وصار البلد تحت سلطتهم «لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً» ومعبداً وموضعاً للعبادة والسجود يتعبّد الناس فيه ببركاتهم.

هذا هو الظاهر المستفاد من الآية.

قال الرازى: «قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ» قيل: المراد به الملك المسلم وأولياء أصحاب الكهف، وقيل: رؤساء البلد، «لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً» نعبد اللّه، وستبقى آثار أصحاب الكهف بسبب ذلك المسجد «(٣)».

وقال أبو حيان الأندلسى: روى أنّ التى دَعت إلى البنيان ماتت كافرة، أرادت بناء مصنع لكفرهم، فمانعهم المؤمنون وبنوا عليهم مسجداً «(۴)».

١- الجوهرى، الصحاح ۶: ٢٢٨ مادة بناء؛ وابن منظور، اللسان ١: ۵١٠ تلك المادة.

٢- القاسمى، محاسن التأويل ٧: ٢١.

٣- الرازى، مفاتيح الغيب ٢١: ١٠۵.

۴- أبو حيان محمد بن يوسف ۶۵۴- ٧۵۴ ه، البحر المحيط ج ۶.

ص:۲۷

وقال أبو السعود (ت ۹۵۱): «وَقَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِم» وهم الملك والمسلمون «لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً» «(۱)».

وقال الزمخشری فی الكشاف: «وَقَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِم» من المسلمين وملكهم وكانوا أولى بهم وبالبناء عليهم ليتّخذ على باب الكهف مسجداً يصلّی فيه المسلمون ويتبرّكون بمكانهم «(۲)».

إلی غیر ذلک من الکلمات الواردة فی تفسیر الآیة، وکأنَّ الاتفاق موجود علی أنّ القول بایجاد البنیان علی باب الکهف کان لغیر المسلمین، والقول ببناء المسجد علی بابه قول المسلمین، والذی یدلّ علی ذلک أمران:

الأوّل: إنّ اتّخاذ المسجد دلیل علی أنّ القائل کان موحّداً مسلماً غیر مشرک، فأیّصلة للمشرک ببناء مسجد علی باب الکهف، ولو کان المشرکون یهتمّون بعمارة المسجد الحرام فلأجل أنّه أُنیطَ بالبیت کیانهم وعظمتهم فی الأوساط العربیّة، بحیث کان التخلّی عنها مساوقاً لسقوطهم عن أعین العرب فی الجزیرة کتکریمهم البیت الحرام.

أفبعدَ اتّفاق أکابر المفسّرین هل یصحّ لباحثٍ أن یشکّ فی أنّ القائلین ببناء المسجد علی قبورهم کانوا هم المسلمین الموحّدین؟!

الثانی: ما رواه الطبری فی تفسیر قوله: «فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ» قال: إنّ المبعوث دخل المدینة فجعل یمشی بین سوقها فیسمع أُناساً کثیراً یحلفون باسم عیسی بن مریم فزاده فزعاً ورأی أنّه

۱- أبو السعود محمد بن محمد العمادی، التفسیر ۵: ۲۱۵.

۲- الزمخشری، الکشاف ۲: ۲۴۵.

ص:۲۸

حيران، فقام مسنِداً ظهرَه إلى جدار من جُدران المدينة ويقول فى نفسه:

أمّا عشيةَ أمس فليس على الأرض إنسان يذكر عيسى بن مريم إلّاقتل، أمّا الغداة فأسمعهم وكلّ إنسان يذكر أمر عيسى لا يخاف، ثمّ قال فى نفسه: لعلّ هذه ليست بالمدينة التى أعرف «(۱)».

وهذا يعرب عن أنّ الأكثرية الساحقة كانت موحّدة مؤمنة متديّنة بشريعة المسيح، رغم ما كانوا على ضدّه قبل ثلاثمائة سنة.

وقال فى تفسير قوله تعالى: «فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَاناً» فقال الذين أعثرناهم على أصحاب الكهف: «ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَاناً رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ» يقول: ربّ الفتية أعلم بشأنهم، وقوله: «قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ» يقول جلّ ثناؤه: قال القوم الذين غلبوا على أمر أصحاب الكهف: «لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً».

وقد نُقل عن عبد اللَّه بن عبيد بن عمير: فقال المشركون نبنى عليهم بنياناً فإنّهم آباؤنا ونعبد اللَّه فيها، وقال المسلمون: نحن أحقّ بهم، هم منّا، نبنى عليهم مسجداً فيه ونعبد اللَّه فيه «(۲)».

الرأى المسبق يضرب عرض الجدار

إنّ الشيخ الألبانى ربيب الوهابيّة ومروّجها، لمّا رأى دلالة الآية على أنّ المسلمين حاولوا أنْ يبنوا مسجداً على قبورهم، وكان ذلك على

۱- الطبرى، التفسير ۱۵: ۲۱۹ فى تفسير سورة الكهف، الآية ۱۹ ط. مصر مصطفى الحلبى.

۲- الطبرى، التفسير ۱۵: ۲۲۵؛ ولاحظ تفسير القرطبى والكشاف للزمخشرى وغرائب القرآن للنيسابورى فى ذيل هذه الآية.

ص:۲۹

طرف الخلاف من عقيدته، حاول تحريف الكلم وقال: إنّ المراد من الغالبين هم أهل السلطة، ولا دليل على حجيّة فعلهم، ولكنّه عزب عن أنّ البيئة قد انقلبت عن الشرك إلى التوحيد ومن الكفر إلى الإسلام حسبما نقله الطبرى، وليس القائل ببناء المسجد على بابهم الملك، وإنّما القائل هم الذين توافدوا على باب الكهف عندما أعثرهم سبحانه على أحوالهم، وطبع الحال يقتضى توافد الأكثرية الساحقة القاطنين فى المدينة على باب الكهف لا خصوص الملك، ولا وزراؤه، بل الموحّدون بأجمعهم، وهو فى هذه النسبة عيال على ابن كثير حيث قال:

والظاهر أنّهم أصحاب النفوذ «(۱)».

نحن نفترض أنّهم أصحاب النفوذ، إلّاأنّهم نظروا إلى الموضوع من خلال منظار دينهم ومقتضى مذهبهم لا مقتضى سلطتهم.

تقرير القرآن عليصحّة كلا الاقتراحين

إنّ الذكر الحكيم يذكر كلا الاقتراحين من دون أىّ نقدٍ ورد، وليسصحيحاً قطعاً أن يذكر اللّه سبحانه عن هؤلاء المتواجدين على باب الكهف أمراً باطلًا من دون أيّة إشارة إلى بطلانه، إذ لو كان كذلك كأن يكون أمراً محرّماً أو مقدّمة للشرك والانحراف عن التوحيد، لكان عليه أن لا يمرّ عليها بلا إشارة إلى ضلالهم وانحرافهم، خصوصاً أنّ سياق الآية بصدد المدح وأنّ أهل البلد اتّفقوا على تكريم هؤلاء الذين هجروا

۱- ابن كثير، التفسير ۵: ۳۷۵.

ص:۳۰

أوطانهم لأجلصيانة عقيدتهم، غاية الأمر اختلفوا في كيفيّته، فمن قائل ببناء البنيان إلى آخر ببناء المسجد.

إنّ القرآن كتاب نزل لهداية الإنسان وتربية الأجيال، والهدف من عرض حياة الأُمم ووقائعهم هو الاعتبار، فلا ينقل شيئاً إلّافيه عبرة، فلو كان الاقتراحان يمسّان كرامة التوحيد، لِمَ سكت عنه؟

وهذا ظاهر فيمن تدبّر في القرآن الكريم، وسيوافيك بقيّة الكلام عند بيان النتيجة.

إنّ جمال الدين القاسمي الدمشقي (۱۲۸۳– ۱۳۳۲ ه) كان يصوّر نفسه مصلحاً إسلاميّاً يسعى في توحيد كلمة المسلمين ولَمِّ شَعْثِهِم، ومن شروط من يتبنّى لنفسه ذلك المقام الرفيع أن ينظر إلى المسائل من منظار وسيع ويستقبل الخلاف بين المسلمين بسعةصدر، ولكنّه– عفا اللَّه عنه– يريد توحيد الكلمة في ظلّ الأُصول التي ورثها عن ابن تيمية، فزاد في الطين بلّة، ويشهد لذلك ما علّقه على عبارة ابن كثير، وإليك عبارة ابن كثير، وتعليق ذاك.

قال ابن كثير بعد تفسير الآية: هل هم كانوا محمودين أم لا؟ فيه نظر، لأنّ النبيّ قال: «لعن اللَّه اليهود والنصارى اتّخذوا قبور أنبياءهم وصالحيهم مساجد» يحذّر ما فعلوا.

وقال جمال الدين: وعجيب من تردّده في كونهم غير محمودين، مع إيراده الحديث الصحيح بعده المسجّل بلعن فاعل ذلك، والسبب في ذلك أنّ البناء على قبر النبيّ مَدعاة للإقبال عليه والتضرّع إليه، ففيه فتح

ص:۳۱

لباب الشرک وتوسّل إلیه بأقرب وسیلهٔ ... «(۱)».

یلاحظ علیه: أنّ القرآن هو الحجّهٔ الکبری للمسلمین، وفیه تبیان لکلّ شیء، وهو المهیمن علی الکتب، فإذا دلّ القرآن علی جوازه فما قیمهٔ الخبر الواحد الذی روی فی هذا المجال إذا کان مضادّاً للوحی، ومخالفاً لصریح الکتاب، وإن کانت السنّهٔ المحمدیّهٔ الواقعیهٔ لا تختلف عنه قید شعرهٔ، إنّما الکلام فی الروایهٔ التی رواها زید عن عمرو حتی ینتهی إلی النبی، فإنّ مثله خاضع للنقاش، ومرفوض إذا خالف الکتاب، لکن ما ذکره یعرب عن أنّ الأساس عنده هو الحدیث لا الذکر الحکیم.

وکان علیه بعد تسلیم دلالهٔ القرآن أن یبحث فی سند الحدیث ودلالته، وأنّ الحدیث علی فرض الصحّهٔ ناظر إلی ما کان القبر مسجوداً له، أو مسجوداً علیه أو قِبلهٔ، ومن المعلوم أنّ المسلمین لا یسجدون إلّا للّه، ولا یسجدون إلّاعلی ماصحّ السجود علیه، ولا یستقبلون إلّاالقِبلهٔ، وسیتّضح نصّ محقّقی الحدیث، علی أنّ المراد هو ذلک، فانتظر.

وأعجب منه ما فی ذیل کلامه: من أنّه رأی التوسّل بالنبیّ شرکاً، مع أنّ النصوص الصحیحهٔ فی الصحاح تدلّ علی جوازه، فقد توسّل الصحابی الضریر بالنبیّ الأکرم حسب تعلیمه وقال: اللّهمّ إنّی أسألک وأتوجّه إلیک بنبیّک نبیّ الرحمهٔ، یا محمد إنّی أتوجّه بک إلی ربّی فی حاجتی لتُقضی «(۲)».

۱- جمال الدین قاسمی، محاسن التأویل ۷: ۳۰- ۳۱.

۲- الترمذی، الصحیح ۵: کتاب الدعوات، الباب ۱۱۹ برقم ۲۵۷۸؛ ابن ماجهٔ، السنن ۱: ۴۴۱ برقم ۱۳۸۵؛ الإمام أحمد، المسند ۴: ۱۳۸، إلی غیر ذلک من المصادر.

ص:۳۲

وقد اتّفقوا علی صحهٔ الحدیث، حتی أنّ ابن تیمیهٔ- مُثیرَ هذه الشکوک- اعترف بصحّته وقال: وقد روی الترمذی حدیثاًصحیحاً عن النبیّ أنّه علّم رجلًا یدعو فیقول: ...، وقد أوردنا نصوص القوم فی کتاب «التوسّل».

ومن زعم أنّ هذه التوسّ‍لات أساس الشرک، فلینظر إلی المسلمین طیلهٔ أربعهٔ عشر قرناً، فإنّهم ما برحوا یتوسّلون بالنبیصلی الله علیه و آله، وما عدلوا عن سبیل التوحید قید شعرهٔ.

إنّ إنشاء البناء علی قبر نبیّ التوحید تأکیدٌ علی مبدأ التوحید ورسالته العالمیهٔ التی یشکل أصلها الأول قوله سبحانه: «أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ».

وقد خرجنا عن هذه الدراسهٔ بالنتیجتین التالیتین:

۱- جواز البناء علی قبور الأولیاء والصالحین ودعاهٔ التوحید فضلًا عن النبیّ وما ذلک إلّاأنّ القرآن ذکر ذلک من دون أن یغمض فیه، ولیس القرآن کتاباً قصصیّاً ولا- مسرحیّاً للتمثیل، بل هو کتاب هدایهٔ ونور، فإن نقل شیئاً ولم یغمض علیه فهو دلیل علی أنّه محمود عنده.

نری أنّه سبحانه یحکی کیفیّ‍هٔ غرق فرعون ویقول: «حَتَّی إِذَا أَدْرَکَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَاإِلَهَ إِلَّا الَّذِی آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِیلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِینَ» (یونس/ ۹۰).

ولمّا کانت تلک الفکرهٔ باطلهٔ عنده سبحانه، أراد إیقاف المؤمنین علی أنّ الإیمان فی هذا الظرف غیر مفید، فلأجل ذلک عقّب عیه بقوله:

«ءالْآنَ وَقَدْ عَصَیْتَ قَبْلُ وَکُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِینَ» (یونس/ ۹۱).

ص:۳۳

فالإنسـان العـارف بالکتاب یقف علی أنّه لم یترک علیصـعید العقائـد أُموراً إلّاوذکر أوضـحها وبیّنها بطرق مختلفـهٔ، ومن تلک الطرق القصـص الواردهٔ فی الکتاب العزیز، فکلّ ما وقع فی الأُمم السالفـهٔ وصار القرآن بصدد ذکره فهو علی أقسام ثلاث: کونه بیّن الصـحهٔ، أو بیّن البطلان، أو المردّد بین الأمرین.

فقد یترک البیان فی الأولین لعدم الحاجهٔ، وأمّا الثالث فلا یترکه إلّا إذا کان مقبولًا لدیه.

۲- جواز بناء المسـجد علی قبور الصالحین فضـلًا عن الأنبیاء وجواز الصـلاهٔ فیها والتبرّک بتربته، فلو کانت الصلاهٔ فی المقابر مکروههٔ فالأدلّهٔ المرغّبهٔ إلی الصلاهٔ فی جِوار الصالحین والأنبیاء تخصّص تلک العمومات، وذلک لأنّ للصلاهٔ فی مشاهدهم مصلحهٔ تغلب علی الحضاضهٔ الموجودهٔ فی الصلاهٔ فی المقابر المطلقهٔ.

ص:۳۴

الآية الثالثة:صيانة الآثار الإسلامية وتعظيم الشعائر

اشارة

قال سبحانه: «ذلِکَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ» (الحج/ ۳۲).

والاستدلال بالآية يتوقّف على ثبوتصغرى وكبرى:

الصغرى عبارة عن كون الأنبياء وأوصيائهم ومن يرتبط بهم أحياءً وأمواتاً من شعائر اللَّه.

والكبرى عبارة عن كون البناء وصيانة الآثار والمقابر تعظيماً لشعائر اللَّه.

ولا أظنّ أنّ الكبرى تحتاج إلى مزيد بيان، إنّما المهم بيان الصغرى، وأنّ الأنبياء والأوصياء من شعائر اللَّه، وبيان ذلك يحتاج إلى نقل ما ورد حول شعائر اللَّه من الآيات:

۱- «إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ» (البقرة/ ۱۵۸).

۲- «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَاتُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامِ وَلَا

ص:۳۵

الْهَدْیَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّینَ الْبَیْتَ الْحَرَامَ یَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَاناً» (المائدهٔ/ ۲).

۳- «وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَکُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَکُمْ فِیهَا خَیْرٌ» (الحج/ ۳۶).

وفی آیهٔ أُخری جعل مکان شعائر اللَّه حرمات اللَّه وقال:

«ذلِکَ وَمَنْ یُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَیْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَکُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا یُتْلَی عَلَیْکُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ ...» (الحج/ ۳۰).

ما هو المقصود من شعائر اللَّه؟

هنا احتمالات:

۱- تعظیم آیات وجوده سبحانه.

۲- معالم عبادته وأعلام طاعته.

۳- معالم دینه وشریعته وکلّ ما یمت إلیهما بصلهٔ.

أمّا الأوّل، فلم یقل به أحد، إذ کل ما فی الکون آیات وجوده، ولا یصحّ تعظیم کلّ موجود بحجهٔ أنّه دلیل علی الصانع.

وأمّا الثانی، فهو داخل فی الآیهٔ قطعاً، وقد عدّ الصَّفا والمروهَ والبُدْن من شعائر اللَّه، فهی من معالم عبادته وأعلام طاعته، إنّما الکلام فی اختصاص الآیهٔ بمعالم العبادهٔ وأعلام الطاعهٔ، ولا دلیل علیه، بل المتبادر هو الثالث، أی معالم دینه سبحانه، سواء کانت أعلاماً لعبادته وطاعته أم لا، فالأنبیاء والأوصیاء والشهداء والصحف والقرآن الکریم والأحادیث النبویّهٔ کلّها من شعائر دین اللَّه وأعلام شریعته، فمن عظّمها فقد عظّم شعائر الدین.

ص:۳۶

قال القرطبى: فشعائر اللّه، أعلام دينه، لا سيما ما يتعلّق بالمناسک «(۱)».

ولقد أحسن حيث عمّم أولًا، ثمّ ذكر مورد الآية ثانياً، وممّا يعرب عن ذلک أنّ ايجاب التعظيم تعلّق ب «حرمات اللّه» فى آية أُخرى. قال سبحانه: «وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ»، والحرمات ما لا يحلّ انتهاكه، فأحكامه سبحانه حرمات اللّه، إذ لا يحلّ انتهاكها، وأعلام طاعته وعبادته حرمات اللّه، إذ يحرم هتكها، وأنبياؤه وأوصياؤهم وشهداء دينه وكتبه وصحفه من حرمات اللّه، يحرم هتكهم، فلو عظّمهم المؤمن أحياءً وأمواتاً فقد عمل بالآيتين: «وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ» «وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ».

۱- القرطبى، التفسير ۱۲: ۵۶ طبع دار إحياء التراث.

ص:۳۷

الآیهٔ الرابعهٔ:صیانهٔ الآثار ومودّهٔ ذوی القربی

إنّ القرآن الکریم یأمرنا- بکلّصراحهٔ- بحبّ النبیّصلی الله علیه و آله وأقربائه، ومودّتهم ومحبّتهم فیقول:

«وَمَنْ یَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِینَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ» (المائدهٔ/ ۵۶) و «قُلْ لَاأَسْأَلُکُمْ عَلَیْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّهَٔ فِی الْقُرْبَی» (الشوری/ ۲۳).

ومن الواضح لدی کلّ من یخاطبه اللَّه بهذه الآیهٔ أنّ البناء علی مراقد النبیصلی الله علیه و آله وأهل بیته علیهم السلام، هو نوع من إظهار الحبّ والمودّهٔ لهم، وبذلک یخرج عن کونه بدعهٔ، لوجود أصل له فی الکتاب والسنّهٔ، ولو بصورهٔ کلیّهٔ.

وهذه العادهٔ متّبعهٔ عند کافهٔ الشعوب والأُمم فی العالم، فالجمیع یعتبرون ذلک نوعاً من المودّهٔ لصاحب ذلک القبر، ولذلک تراهم یدفنون کبار الشخصیات السیاسیهٔ والعلمیهٔ فی کنائس ومقابر مشهورهٔ ویزرعون أنواع الزهور والأشجار حولها.

ص:۳۸

الفصل الثانی: من منظار القواعد الفقهيّة

الأصل فی الأشياء الإباحة والحلّية

إنّ الأصل فی الأشياء هو الإباحة ما لم يرد فيها نهی فی الشريعة، وهذه هی القاعدة المحكمة التی اعتمد عليها الفقهاء عبر القرون إلّا المتزمّتين غير الواعين.

حتی أنّ الذكر الحكيم يصرّح بأنّ وظيفة النبیّ الأكرم هو بيان المحرّمات دون المحلّلات، وأنّ الأصل هو حلّية كلّ عمل وفعل، إلّاأن يجد النبیّ حرمته فی شريعته، وأنّ وظيفة الأُمّة هو استفراغ الوسع فی استنباط الحكم من أدلّته، فإذا لم تجد دليلًا علی الحرمة تحكم عليه بالجواز.

ونكتفی فی هذا المقام بالإشارة إلی مجموعة من الآيات، وإن كان فی السنّة الغرّاء أيضاً كفاية:

١- قال سبحانه: «وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيراً لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ

ص:۳۹

بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ» (الأنعام/ ۱۱۹).

فإنّ هـذه الآيـة تكشف عن أنّ الذی يحتاج إلی البيان إنّما هو المحرّمات لا المباحات، ولأجل ذلك لا وجه للتوقّف فی العمل، بعدما لم يكن مبيّناً فی جدول المحرّمات.

وبعبارة أُخرى: أنّ المسلم إذا لم يجد شيئاً فی جدول المحرّمات لم يكن له تبرير لتوقّفه وعدم الحكم عليه بالإباحة والجواز والحلّية.

۲- قال سبحانه: «قُلْ لَاأَجِدُ فِی مَا أُوحِىَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ» (الأنعام/ ۱۴۵).

إنّها تكشف عن أنّ ما يلزم بيانه إنّما هو المحرّمات لا المباحات، ولـذلك يسـتدلّ مبلغ الوحی- ونعنی به النبی الكريمصـلی الله عليه و آله- بـأنّه لاـ يجـد فيمـا أُوحی إليه محرّمـاً علی طـاعم يطعمه سوی الأُـمور المـذكورة، فـإذا لم يكن هنـاك شـیء فهو محكوم بالحلّية والإباحة.

۳- قال سبحانه: «مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِی لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا» (الإسراء/ ۱۵).

۴- قـال سـبحانه أيضـاً: «وَمَـا كَـانَ رَبُّكَ مُهْلِـكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِی أُمِّهَـا رَسُولًـا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَـا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِی الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ» (القصص/ ۵۹).

إنّ دلالة هاتين الآيتين علی المقام واضحة، فإنّ جملة «وما كان» تارة تستعمل فی نفی الشأن والصلاحية، وأُخرى فی نفی كون الشیء

ص:۴۰

أمراً ممكناً.

أمّا الأوّل، فمثل قوله: «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ» (البقرة/ ۱۴۳) وغيرها كسورة آل عمران (الآيات ۷۹ و ۱۶۱)، أی ليس من شأن اللّه سبحانه وهو العادل الرؤوف أن يضيع أيمانكم.

وأمّا الثانی، فمثل قوله: «مَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَاباً مُؤَجَّلًا» (آل عمران/ ۱۴۵)، أی لا يمكن لنفس أن تموت بدون إذنه سبحانه.

فيكون معنى الآيتين بناءً على الاستعمال الأول: هو ليس من شأن اللّه تعالى أن يعذّب الناس أو يهلكهم قبل أن يبعث إليهم رسولًا.

وعلى الاستعمال الثانی: هو ليس من الممكن أن يعذّب اللّه الناس أو يهلكهم قبل أن يبعث إليهم رسولًا.

وعلى كلّ تقدير، فدلالة الآيتين على الإباحة واضحة، إذ ليست لبعث الرسل خصوصية وموضوعية، ولو أُنيط جواز العذاب ببعثهم فإنّما هو لأجل كونهم وسائط للبيان والإبلاغ، والملاك هو عدم جواز التعذيب بلا بيان وإبلاغ، وأنّ التعذيب ليس من شأنه سبحانه، أو أنّه ليس أمراً ممكناً حسب حكمته.

۵- قال سبحانه: «وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا مُنْذِرُونَ» (الشعراء/ ۲۰۸).

فإنّ هذه الآية مشعرة بأنّ الهلاك كان بعد الإنذار والتخويف، وأنّ اشتراط الانذار كناية عن البيان وإتمام الحجّة.

۶- قوله سبحانه: «وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى» (طه/ ۱۳۴).

ص:۴۱

فإنّ هـذه الآية تدلّ على أنّ التعذيب قبل بعث الرسول مردود بحجة المعذّبين وهى قولهم: «لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ»، فلا يصحّ التعذيب إلّابعد إتمام الحجّة عليهم ببعث الرسل.

وهـذا يعنى أنّ الأشياء مباحـة جائزة الارتكاب خاليـة عن العقوبة أصلًا، إلّاإذا ردع عنها الشارع بشكل من الأشكال التى منها إرسال الأنبياء.

۷- قوله سبحانه: «يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» (المائدة/ ۱۹).

فإنّ ظاهر قوله: «مَا جاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ» أنّه حجّة تامّةصحيحة، ويحتج به على كلّ من عذّب قبل البيان، ولأجل ذلك قام سبحانه بإرسال الرسل حتى لا يُحتج عليه، بل تكون الحجة للّهسبحانه.

وهـذا يعطى أنّه لا يحكم على حرمة شىء ولا يجوز التعذيب على ارتكابه قبل بيان حكمه، وذلك لأنّ بعث البشير والنذير كناية عن بيان الأحكام.

ص:۴۲

الفصل الثالث: المشاهد والمقابر من خلال سيرة المسلمين فى خير القرون

اشارة

قد تعرّفت على قضاء الكتاب فى تكريم الأنبياء والأولياء، وأنّ البناء على قبورهم أو بناء المساجد حول مراقدهم، أمر محبّذ، ندبت إليه الشريعة الإلهيّة، ولم ترَ أىّ أثر فيها للتحريم، وعلى ذلك درج السلف الصالح عبر القرون، ولم يزل الإلهيّون من أهل الكتاب والمسلمين على مدى العصور يهتمّون بمقابر الأنبياء والأولياء بالبناء والتعمير ثمّ التطهير والتنظيف لها، حتى أنّ كثيراً من المتمكّنين يُخصّصُون شيئاً من أموالهم لهذه الغاية.

فهذه القباب الشاهقة والمنائر الرفيعة والساحات الوسيعة حول مراقد الأنبياء والأولياء وحول مراقدصحابتهم فى مختلف الديار شرقها وغربها، لدليل قاطع على أنّ هذه السيرة سيرة مشروعة، وإلّا كان على الصحابة الكرام والتابعين لهم بإحسان رفضها وردّها بالبيان والبنان

ص:۴۳

والسلطة والقوّة، فالسكوت عليها إلى عصر إثارة هذه الشكوك، عصر ابن تيمية، أدلّ دليل على كونها سيرة مشروعة.

وعندما قام ابن تيمية بوجه هذه السيرة أثار ثائرة المسلمين ضدّه شرقاً وغرباً، وقد بيّنوا ضلالة تلك الفكرة و نحرافها عن الشرع.

و قد وقف السلف الصالح- بعد فتح الشام- على قبور الأنبياء ذوات البناء الشامخ، فتركوها على حالها من دون أن يخطر ببال أحدهم- وعلى رأسهم عمر بن الخطاب- بأنّ البناء على القبور أمر محرّم يجب هدمه.

وهكذا الحال فى سائر القبور المشيّدة عليها الأبنية فى أطراف العالم، وإن كنت فى ريب فاقرأ تواريخهم.

ولو قام باحث بوصف الأبنية الشاهقة التى كانت مشيّدة على قبور الأنبياء والصالحين قبل ظهور الإسلام، وما بناه المسلمون فى عصر الصحابة والتابعين لهم باحسان إلى يومنا هذا فى مختلف البلدان، لجاء بكتاب فخم ضخم، يعرب عن أنّ السنة الرائجة فى تلك الأعصار قبل الإسلام وبعده، من عصر الرسول والصحابة والتابعين لهم إلى يومنا هذا، هى مشروعيّة البناء على القبور والعناية بحفظ آثار علماء الدين، ولم ينبس أى ابن أُنثى حول ذلك ببنت شفة، وما اعتُرض عليها، بل تلقوها اظهاراً للمحبّة والودّ لأصحاب الرسالات والنبوّات وأصحاب العلم والفضل، ومن خالف تلك السنة وعدّها شركاً أو أمراً محرّماً فقد اتّبع غير سبيل المؤمنين، قال سبحانه:

«وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعَ غَيْرَ سَبِيلَ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنَصِلْهُ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً» (النساء/ ۱۱۵).

ص:۴۴

وقد وارى المسلمون جسد النبى الأكرم فى بيته المسقّف، ولم يزل المسلمون منذ واروا جثمانه، على العناية بحجرته الشريفة بشتّى الأساليب.

وقد بنى عمر بن الخطاب حول حجرته جداراً، حيث جاء تفصيل كلّ ذلك مع ذكر وصف الأبنية التى توالت عليها عبر القرون فى الكتب المتعلّقة بتاريخ المدينة، لا سيّما وفاء الوفا للإمام السمهودى المتوفّى عام ۹۱۱ ه «(۱)»، والبناء الأخير الذى شيّد عام ۱۲۷۰ ه قائم لم يمسّه سوء، وسوف يبقى بفضل‌اللَّه تبارك وتعالى محفوظاً عن الاجتراء.

وأمّا المشاهد والقباب المبنيّة فى المدينة منذ العصور الأُولى فحدّث عنها ولا حرج، لا سيّما فى بقيع الغرقد، ومن أراد التفصيل فليرجع إلى كتب التاريخ وأخبار المدينة.

وقد ذكر كثير من المؤرّخين والسوّاح شيئاً كثيراً من أبنية شاهقة على قبور الأنبياء والصالحين فى خير القرون.

وبدورنا نذكر شيئاً يسيراً ممّا جاء فى كتبهم، ونكتفى بذكر كلمات ثلاثة من المؤرّخين المعروفين بالثبت والضبط، ثمّ نذكر ما ذكره الرحّالة المعروف ابن جبير فى رحلته على وجه التفصيل:

١- كلمة المسعودى فى حقّ قبور أئمة أهل البيت عليهم السلام

هذا هو المسعودى الذى توفى عام ۳۴۵ ه، وقد أدرك خير القرون، وولد فى مؤخّره- لو كان خير القرون هو القرون الثلاثة الأُولى-

---

۱- السمهودى، وفاء الوفا ۲: ۴۵۸ الفصل التاسع.

ص:۴۵

یقول: وعلی قبورهم فی هذا الموضع من البقیع رخامهٔ مکتوب علیها:

بسم اللّه الرحمن الرحیم، الحمـد للّهمبیـد الأُمم ومحیی الرمم، هذا قبر فاطمهٔ بنت رسول اللّه (ص) سـیّدهٔ نساء العالمین وقبر الحسن بن علیّ ابن أبی طالب، وعلیّ بن الحسین بن أبی طالب، ومحمّد بن علی وجعفر ابن محمد «(۱)».

۲- کلمهٔ ابن الجوزی:

یقول ابن الجوزی: وهـذا هو محمـد بن أبی بکر التلمسـانی یصف المدینـهٔ الطیّبـهٔ وبقیع الغرقـد فی القرن الرابع بقوله: وقبر الحسن بن علی عن یمینک إذا خرجت من الدرب ترفع إلیه قلیلًا، علیه مکتوب: هذا قبر الحسن بن علی، دفن إلی جنب أُمّه فاطمهٔ رضی اللّه عنها وعنه «(۲)».

۳- کلمهٔ الحافظ محمد بن محمود بن النجّار:

یقول: فی قبهٔ کبیرهٔ عالیهٔ قدیمهٔ البناء فی أول البقیع، وعلیها بابان یفتح أحدهما فی کلّ یوم للزیارهٔ رضی اللّه عنهم «(۳)».

۴- الرحّالهٔ ابن جبیر والأبنیهٔ علی المشاهد:

اشارهٔ

هذا هو أبو الحسین محمد بن أحمد بن جبیر الأندلسی الشاطبی،

۱- المسعودی، مروج الذهب ومعادن الجوهر ۲: ۲۸۸.

۲- مجلهٔ العربی: رقم ع ۶ المؤرخهٔ ۱۳۹۳.

۳- أخبار مدینهٔ الرسول، اهتمّ بنشره صالح محمد جمال، طبع مکهٔ المکرّمهٔ ۱۳۶۶.

ص:۴۶

أحد علماء الأندلس الأكابر فی الفقه والحدیث، یحکی لنا فی رحلته عن الأبنیة الرفیعة والقباب العالیة فی المشاهد والمزارات المعروفة یومذاک للأنبیاء والصالحین والنبیّ الأکرمصلی الله علیه و آله وأهل بیته وصحابته والتابعین لهم بإحسان.

فقد قام برحلات ثلاث، أهمّها استغرقت أکثر من ثلاث سنوات، حیث بدأها یوم الاثنین فی التاسع عشر من شهر شوال عام ۵۷۸ ه، و ختمها فی یوم الخمیس الثانی والعشرین من شهر محرم سنة ۵۸۱ ه، وقد وصف فی هذه الرحلة ما مرّ به من مدن وما شاهد من عجائب البلدان.

کما وعنی عنایة خاصة بوصف النواحی الدینیة والمساجد والمشاهد وقبور الأنبیاء والأولیاء وأهل البیت والصحابة والتابعین، وصفاً دقیقاً، یعرب عن أنّ هذه القباب والأبنیة الرفیعة شُیّدت من قبل قرون تتّصل إلی عصر الصحابة والتابعین.

ولم یکن یومذاک أیُّ معترض علی بنائها فوق قبور هؤلاء، ولم یدر بِخُلْدِ أحد أنّ هذه القباب والأبنیة ستبعدنا عن التوحید، بل کانوا یتبرّکون بهذا العمل ویبدون ما فی مشاعرهم من ودّ وحبّ لأصحابها.

وکان التبرّک والتقبیل سنّة رائجة بین المسلمین، وهم لم یکونوا یقبّلون باباً ویتبرّکون بالجدار، بل یتبرّکون بمن حوتهم، علی حدّ قول مجنون العامری:

أمرُّ علی الدیار دیار لیلی أُقبّل ذا الجدار وذا الجدارا

وما حبّ الدیار شغفن قلبی ولکن حبّ من سکن الدیارا

وفیما یلی نشیر بشکل مقتضب إلی مجمل کلامه:

مشهد رأس الحسین بالقاهرة:

یقول ابن جبیر فی ذکر مصر والقاهرة وبعض آثارها العجیبة:

فأوّل ما نبدأ بذکره منها الآثار والمشاهد المبارکة التی ببرکتها یمسکها اللَّه عزّ وجلّ، فمن ذلک المشهد العظیم الشأن الذی بمدینة القاهرة حیث رأس الحسین بن علی بن أبی طالب، رضی اللَّه عنهما، وهو فی تابوت فضّة مدفون تحت الأرض قد بُنِیَ علیه بنیان حفیل یقصر الوصف عنه ولا یحیط الإدراک به ....

إلی أن یقول: ومن أعجب ما شاهدناه فی دخولنا إلی هذا المسجد المبارک حجر موضوع فی الجدار الذی یستقبله الداخل، شدید السواد والبصیص، یصف الأشخاص کلّها، کأنّه المرآة الهندیة الحدیثة الصقل.

وشاهدنا من استلام الناس للقبر المبارک، وإحداقهم به، وانکبابهم علیه، وتمسّحهم بالکسوة التی علیه، وطوافهم حوله، مزدحمین داعین باکین متوسّلین إلی اللَّه سبحانه وتعالی ببرکة التربة المقدّسة، ومتضرّعین ما یذیب الأکباد ویصدع الجماد، والأمر فیه أعظم، ومرآی الحال أهول، نفعنا اللَّه ببرکة ذلک المشهد الکریم.

مشاهد الأنبیاء والصالحین فی مصر:

یقول ابن جبیر عن الجبّانة المعروفة بالقرافة: هی أیضاً إحدی عجائب الدنیا، لِما تحتوی علیه من مشاهد الأنبیاءصلوات اللَّه علیهم،

ص:۴۷

ص:۴۸

وأهل البيت رضوان اللَّه عليهم، والصحابة والتابعين والعلماء والزهّاد والأولياء ... فمنها قبر ابن النبيصالح، وقبر روبيل بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم خليل الرحمنصلوات اللَّه عليهم أجمعين، وقبر آسية امرأة فرعون رضى اللَّه عنها، ومشاهد أهل البيت رضى اللَّه عنهم أجمعين، مشاهد أربعة عشر من الرجال وخمس من النساء.

إلى أن يقول: مشهد علىّ بن الحسين بن علىّ رضى الله عنه، ومشهدان لابنى جعفر بن محمد الصادق رضى اللَّه عنهم، والقاسم بن محمد بن جعفر الصادق بن محمد بن على زين العابدين المذكور، رضى اللَّه عنهم، ومشهدان لابنة الحسن والحسين رضى اللَّه عنهما، ومشهد ابنه عبد اللَّه بن القاسم رضى الله عنه، ومشهد ابنه يحيى بن القاسم، ومشهد علىّ بن عبد اللَّه بن القاسم، رضى اللَّه عنهم، ومشهد أخيه عيسى بن عبد اللَّه، رضى اللَّه عنهما، ومشهد يحيى بن الحسن بن زيد بن الحسن، رضى اللَّه عنهم، ومشهد محمد بن عبد اللَّه بن محمد الباقر بن على بن زين العابدين بن الحسين بن على، رضى اللَّه عنهم، ومشهد جعفر بن محمد من ذريّة علىّ بن الحسين، رضى اللَّه عنهم.

وأمّا عن النساء فيقول ابن جبير: مشهد السيّدة أُمّ كلثوم ابنة القاسم بن محمد بن جعفر، رضى اللَّه عنهم، ومشهد السيّدة زينب ابنة يحيى بن زيد بن على بن الحسين، رضى اللَّه عنهم، ومشهد أُمّ كلثوم ابنة محمد بن جعفر الصادق رضى اللَّه عنهم، ومشهد السيّدة أُمّ عبد اللَّه بن القاسم بن محمد، رضى اللَّه عنهم.

ص:۴۹

مشاهد الصحابة فی مصر:

ویذکر أیضاً من المشاهد فی قوله: مشـهد معاذ بن جبل رضی الله عنه، مشهد عقبة بن عامر الجهنی حامل رایة رسول اللَّهصلی الله علیه و سـلم، مشـهدصاحب بردة الرسولصـلی الله علیه و سـلم، مشـهد أبی الحسـنصائغ رسول اللَّهصـلی الله علیه و سلم، مشهد ساریة الجبل رضـی الله عنه، مشـهد محمد بن أبی بکر الصدیق رضـی اللَّه عنهما، مشـهد أولاده رضی اللَّه عنهم، مشهد أحمد بن أبی بکر الصدیق رضـی اللَّه عنهما، مشـهد أسـماء ابنة أبی بکر الصدیق رضی اللَّه عنهما، مشهد ابن الزبیر بن العوام رضی اللَّه عنهما، مشهد عبد اللَّه بن حذافة السهمیصاحب رسول اللَّهصلی الله علیه و سلم، مشهد ابن حلیمة رضیع رسول اللَّهصلی الله علیه و سلم.

مشاهد الفقهاء الکبار فی مصر:

وعن مشاهـد الأئمـة العلماء الزهّاد یقول: مشـهد الإمام الشافعی رضـی الله عنه، وهو من المشاهـد العظیمـة احتفالًا واتّساعاً، وبُنی بإزائه مدرسة لم یُعْمَر بهذه البلاد مثلها، یخیل لمن یطوف علیها أنّها بلد مسـتقل بذاته، بإزائها الحمام، إلی غیر ذلک من مرافقها، والبناء فیها حتی الساعة، والنفقة علیها لا تُحصی، تولّی ذلک بنفسه الشیخ الإمام الزاهد العالم المعروف بنجم الدین الحُبوشانی.

وسلطان هذه الجهاتصلاح الدین، یسمح له بذلک کلّه ویقول:

زد احتفالًا وتأنّقاً وعلینا القیام بمؤونة ذلک کله، فسبحان الذی جعله صلاح دینه کاسمه.

ثمّ یذکر مشاهد أُخری ویقول:

ص:۵۰

مشهد المُزَنیّصاحب الإمام الشافعی رضی الله عنه، مشهد أشهبصاحب مالک رضی الله عنه، مشهد عبد الرحمن بن القاسمصاحب مالک رضی اللَّه عنهما، مشهد أصبغصاحب مالک رضی اللَّه عنهما، مشهد القاضی عبد الوهاب رضی الله عنه، مشهد عبد اللَّه بن عبد الحکم ومحمد بن عبد اللَّه بن عبد الحکم رضی اللَّه عنهما، مشهد الفقیه الواعظ الزاهد أبی الحسن الدینوری رضی الله عنه، مشهد بُنان العابد رضی الله عنه، مشهد الرجل الصالح العابد الزاهد المعروف بصاحب الإبریق، وقصّیته عجیبة فی الکرامة، مشهد أبی مُسلم الخَوْلانی رضی الله عنه، مشهد المرأة الصالحة المعروفة بالعیناء رضی اللَّه عنها، مشهد الروذباریّ رضی الله عنه، مشهد محمد بن مسعود بن محمد بن هارون الرّشید المعروف بالسّبتی رضی الله عنه، مشهد الرجل الصالح مُقبل الحبشیّ رضی الله عنه، مشهد ذی النون بن ابراهیم المصری رضی الله عنه، مشهد القاضی الأنباری، قبر الناطق الذی سُمع عند وضعه فی لحده یقول: اللّهمّ أنزلنی مُنزلًا مبارکاً وأنت خیرُ المنزلین رضی الله عنه، مشهد العروس ولها أثر من الکرامة فی حال جَلْوَتها علی زوجها لم یُسمع أعجب منه، مشهد الصامت الذی یُحکی عنه أنّه لم یتکلّم أربعین سنة، مشهد العصافیری، مشهد عبد العزیز بن أحمد بن علی بن الحسن الخوارزمی، مشهد الفقیه الواعظ الأفضل الجوهریّ ومشاهد أصحابه بإزائه رضی اللَّه عنهم أجمعین، مشهد شُقْران شیخ ذی النّون المصری، مشهد الرجل الصالح المعروف بالأقطع المغربیّ، مشهد المقرئ وَرْش، مشهد الطبری، مشهد شیبان الراعی.

والمشاهد الکریمة بها أکثر من أن تُضبَط بالتقیید أو تتحصّل

ص:۵۱

بالإحصاء، وإنّما ذکرنا منها ما أمکَنَتْنا مشاهدتهُ.

وبقبلهٔ القرافهٔ المذکورهٔ بسیط متّسع یُعرف بموضع قبور الشهداء، وهم الذین استُشهدوا مع ساریهٔ رضی اللَّه عن جمیعهم، والبسیط المذکور مُسنّم کله للعیان علی مثال أسنِمهٔ القبور دون بناء.

القباب الرفیعهٔ لأهل البیت فی مکهٔ المکرّمهٔ:

وعن مشاهد مکهٔ المکرّمهٔ یقول ابن جبیر: فمن مشاهدها التی عاینّاها قبّهٔ الوحی، وهی فی دار خدیجهٔ أُمّ المؤمنین رضی اللَّه عنها، وبها کان ابتناء النبیصلی الله علیه و سلم بها، وقبّهٔصغیرهٔ أیضاً فی الدار المذکورهٔ فیها کان مولد فاطمهٔ الزهراء رضی اللَّه عنها، وفیها أیضاً ولدت سیدیّ شباب أهل الجنّهٔ، الحسن والحسین رضی اللَّه عنهما، وهذه المواضع المقدّسهٔ المذکورهٔ مغلقهٔ مصونهٔ قد بنیت بناءً یلیق بمثلها.

ومن مشاهدها الکریمهٔ أیضاً مولد النبیصلی الله علیه و سلم، والتربهٔ الطاهرهٔ التی هی أوّل تربهٔ مسّت جسمه الطاهر بُنی علیها مسجد لم یُر أحفل بناءً منه، أکثره ذهب منزّل به، والموضع المقدّس الذی سقط فیهصلی الله علیه و سلم ساعهٔ الولادهٔ السعیدهٔ المبارکهٔ التی جعلها اللَّه رحمهً للأُمّهٔ أجمعین محفوف بالفضهٔ.

ثمّ یعد بعض المشاهد فیقول: دار الخیزران، وهی الدار التی کان النبیصلی الله علیه و سلم یعبد اللَّه فیها سراً مع الطائفهٔ الکریمهٔ المبادرهٔ للإسلام من أصحابه رضی اللَّه عنهم ... دار أبی بکر الصدیق ... قبّهٔ بین الصفا والمروهٔ تنسب لعمر بن الخطاب ...

یقول ابن جبیر: دخلنا مولد النبیصلی الله علیه و سلم، وهو مسجد حفیل البنیان

ص:۵۲

وكان داراً لعبـد اللَّه بن عبد المطلب ... إلى أن يقول: وعلى مقربةٍ منه أيضاً مسـجد، عليه مكتوب: هذا المسـجد هو مولد عليّ بن أبى طالب، رضوان اللَّه عليه، وفيه تربّى رسول اللَّهصلى الله عليه و سلم، وكان داراً لأبى طالب عمّ النبيصلى الله عليه و سلم وكافله.

المشاهد المكرّمة ببقيع الغرقد:

وفى ذكر المشاهـد المكرّمـة ببقيـع الغرقـد يقـول ابن جـبير: فـأوّل مـا نـذكر من ذلـك مسـجد حمزة رضـى الله عنه، وهو بقِبْلَى الجبل المـذكور، والجبل جوفىّ المدينـة، وهو على مقـدار ثلاثة أميال، وعلى قبره رضـى الله عنه مسـجد مبنىّ، والقبر برحبة جوفى المسـجد، والشهداء رضى اللَّه عنهم بإزائه ...

وحول الشهداء تربة حمراء هى التربة التى تنسب إلى حمزة ويتبرّك الناس بها.

وبقيع الغرقـد شـرقى المدينـة، تخرج إليه على بـاب يعرف بباب البقيع، وأوّل ما تلقى عن يسارك عنـد خروجك من الباب المـذكور مشهدصفية عمّة النبيصلى الله عليه و سلم أُمّ الزبير بن العوام رضى الله عنه، وأمام هذه التربة قبر مالك بن أنس الإمام المدنى رضى الله عنه وعليه قبّةصـغيرة مختصـرة البناء، وأمامه قبر السـلالة الطاهرة ابراهيم ابن النبيصلى الله عليه و سلم وعليه قبّة بيضاء، وعلى اليمين منها تربـة ابن لعمر بن الخطاب رضـى الله عنه اسـمه عبـد الرحمن الأوسط، وهو المعروف بأبى شَحْمة، وهو الذى جَلَده أبوه الحدّ، فمرض ومات، رضـى اللَّه عنهما، وبازائها قبر عقيل بن أبى طالب رضـى الله عنه، وعبد اللَّه بن جعفر الطيار رضـى الله عنه، وبازائهم روضة فيها أزواج النبيصلى الله عليه و سلم، وبإزائها روضةصغيرة

ص:۵۳

فيها ثلاثة من أولاد النبيصلى الله عليه و سلم، ويليها روضة العباس بن عبد المطّلب والحسن بن على رضى اللَّه عنهما، وهى قبّة مرتفعة فى الهواء على مقربة من باب البقيع المذكور وعن يمين الخارج منه، ورأس الحسن إلى رجلى العبّاس رضى اللَّه عنهما، وقبراهما مرتفعان عن الأرض متّسعان مُغشّيان بألواح ملصقة أبدَع إلصاق، مرصّعة بصفائح الصُّفْر، ومكوكَبة بمساميره على أبدعصفة وأجمل منظر، وعلى هذا الشكل قبر ابراهيم ابن النبيصلى الله عليه و سلم، ويلى هذه القبّة العبّاسيّة بيت يُنسَب لفاطمة بنت الرسولصلى الله عليه و سلم، ويعرف ببيت الحُزن، يقال: إنّه الذى أوت إليه والتزمت فيه الحزن على موت أبيها المصطفيصلى الله عليه و سلم، وفى آخر البقيع قبر عثمان الشهيد المظلوم ذى النّورين رضى الله عنه، وعليه قبّةصغيرة مختصرة، وعلى مقربةٍ منه مشهد فاطمة ابنة أسد أُمّ علىّ، رضى اللَّه عنها وعن بنيها.

ومشاهد هذا البقيع أكثر من أن تُحصى، لأنّه مدفن الجمهور الأعظم من الصحابة المهاجرين والأنصار، رضى اللَّه عنهم أجمعين، وعلى قبر فاطمة المذكورة مكتوب: ما ضمّ قبر أحد كفاطمة بنت أسد رضى اللَّه عنها وعن بنيها.

مشاهد الكوفة:

ويقول ابن جبير عن مسجد الكوفة:

وبهذا الجامع المكرّم آثار كريمة: فمنها بيت بإزاء المحراب عن يمين المستقبل القبلة، يقال: إنّه كان مصلّى ابراهيم الخليلصلى الله عليه و سلم، وعليه ستر أسودصوناً له، ومنه خرج الخطيب لابساً ثيابَ السواد للخطبة،

ص:۵۴

فالناس يزدحمون على هذا الموضع المبارك للصلاة فيه، وعلى مقربة منه، ممّا يلى الجانب الأيمن من القبلة، محراب محلّق عليه بأعواد الساج مرتفع عنصحن البلاط كأنّه مسجدصغير، وهو محراب أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه، وفى ذلك الموضع ضربه الشقىّ اللعين عبد الرحمن بن ملجم بالسيف، فالناس يصلّون فيه باكين داعين، وفى الزاوية من آخر هذا البلاط القبلىّ، المتّصل بآخر البلاط الغربىّ، شبيه مسجدصغير محلّق عليه أيضاً بأعواد الساج، هو موضع مَفار التنّور الذى كان آيةً لنوح عليه السلام، وفى ظهره، خارج المسجد، بيته الذى كان فيه، وفى ظهره بيت آخر يقال إنّه كان متعبَّد إدريسصلى الله عليه و سلم، ويتّصل بهما فضاء متّصل بالجدار القبلى من المسجد، يقال إنّه مُنشأ السفينة، ومع آخر هذا الفضاء دار علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه، والبيت الذى غسل فيه، ويتّصل به بيت يُقال إنّه كان بيت ابنة نوحصلى الله عليه و سلم.

وهذه الآثار الكريمة تلقّيناها من ألسنة أشياخ من أهل البلد فأثبتناها حسبما نقلوها إلينا، واللَّه أعلم بصحّة ذلك كلّه.

وفىالجهةالشرقيّة منالجامع بيتصغير يُصعَد إليه فيه قبر مسلم ابن عقيل بن أبى طالب رضى الله عنه، وفى غربى المدينة على مقدار فرسخ منها المشهد الشهير الشأن المنسوب لعلىّ بن أبى طالب رضى الله عنه، وحيث بركت ناقته وهو محمول عليها مسجّى ميّتاً على ما يُذكر، ويقال: إنّ قبره فيه.

قبور العلماء والأولياء المشيّدة ببغداد:

يقول ابن جبير:

ص:۵۵

وبإحدی هذه المحلّات قبر معروف الكَرخی، وهو رجل من الصالحين مشهور الذكر فی الأولیاء، وفی الطريق إلی باب البصرة مشهد حفيل البنيان داخله قبر متّسع السّنام، عليه مكتوب: هذا قبر عَون ومَعين، من أولاد أمير المؤمنين علیّ بن أبی طالب رضی الله عنه، وفی الجانب الغربی أيضاً قبر موسی بن جعفر، رضی اللّه عنهما.

إلی مشاهد كثيرة ممّن لم تحضرنا تسميتُه من الأولياء والصالحين والسلف الكريم، رضی اللّه عن جميعهم.

وبأعلی الشرقيّة خارج البلد محلّة كبيرة بإزاء محلّة الرّصافة، وبالرصافة كان باب الطّاق المشهور علی الشطّ، وفی تلك المحلّة مشهد حفيل البنيان، له قبّة بيضاء سامية فی الهواء، فيه قبر الإمام أبی حنيفة رضی الله عنه، وبه تعرف المحلّة، وبالقرب من تلك المحلّة قبر الإمام أحمد بن حنبل رضی الله عنه، وفی تلك الجهة أيضاً قبر أبی بكر الشبلی رحمه الله، وقبر الحسين ابن منصور الحلاج، وببغداد من قبور الصالحين كثير، رضی اللّه عنهم.

المشاهد المكرّمة والآثار المعظّمة فی الشام:

يقول ابن جبير:

فأوّلها مشهد رأس يحيی بن زكرياء عليه السلام، وهو مدفون بالجامع المكرّم فی البلاط القبلی قبالة الركن الأيمن من المقصورة الصحابيّة «(۱)»، رضی اللّه عنهم، وعليه تابوت خشب معترض من الأسطوانة، وفوقه

۱- هی أول مقصورة وضعت فی الإسلام وضعها معاوية بن أبی سفيان.

ص:۵۶

قنديل كأنّه من بلّور مجوّف، كأنّه القدح الكبير، لا يُدرى أمن زجاج عراقىّ أمصُورىّ هو أم من غير ذلك.

ومولـد ابراهيمصـلّى اللَّه عليه وسـلّم وعلى نبيّنا الكريم، وهو بصـفح جبل قاسـيون عند قرية تُعرف بِبَرْزَة، وهى من أجمل القرى، وهذا الجبل مشهور بالبركة فى القديم لأنّه مصعد الأنبياء،صلوات اللَّه عليهم، ومطلعهم، وهو فى الجهة الشماليّة من البلد وعلى مقدار فرسخ، وهـذا المولـد المبارك غار مسـتطيل ضـيّق، وقـد بُنى عليه مسـجد كبير مرتفع مُقسّم على مساجد كثيرة كالغُرف المطلّة، وعليهصومعة عالية، ومن ذلك الغار رأيصـلى الله عليه و سـلم الكوكب ثمّ القمر ثمّ الشـمس، حسبما ذكره اللَّه تعالى فى كتابه عزّ وجلّ «(۱)»، وفى ظهر الغار مقامه الذى كان يخرج إليه، وهذا كلّه ذكره الحافظ محدّث الشام أبو القاسم بن هبة اللَّه بن عساكر الدمشقى فى تاريخه فى أخبار دمشق، وهو ينيف على مائة مجلّد.

وذكر أيضاً أنّ بين باب الفراديس، وهو أحد أبواب البلد، وفى الجهة الشـماليّة من الجامع المبارك، على مقربة منه إلى جبل قاسـيون، مدفن سـبعين ألف نبى، وقيل: سـبعون ألف شهيد، وأنّ الأنبياء المدفونين به سبعمائة نبى، واللَّه أعلم، وخارج هذا البلد الجبّانة العتيقة، وهى مدفن الأنبياء والصالحين، وبركتها شـهيرة، وفى طرفها ممّا يلى البساتين وَهْدَة من الأرض متّصـلة بالجبّانة، ذُكر أنّها مدفن سـبعين نبيّاً، وعصمها اللَّه ونزّهها من أن يُدفن فيها أحد، والقبور محيطة بها، وهى لا تخلو من

۱- الأنعام: ۷۶- ۷۸.

ص:۵۷

الماء حتى عادت قرارة له، كلّ ذلك تنزيه من اللّه تعالى لها.

وبجبل قاسيون أيضاً لجهة الغرب، على مقدار ميل أو أزيد من المولد المبارك، مغارة تعرف بمغارة الدم، لأنّ فوقها فى الجبل دم هابيل قتيل أخيه قابيل إبنى آدمصلى الله عليه و سلم، يتّصل من نحو نصف الجبل إلى المغارة، وقد أبقى اللّه منه فى الجبل آثاراً حُمراً فى الحجارة تُحك فتستَحيل، وهى كالطريق فى الجبل، وتنقطع عند المغارة، وليس يوجد فى النصف الأعلى من المغارة آثار تشبهها، فكان يقال: إنّها لون حجارة الجبل، وإنّما هى من الموضع الذى جرّ منه القاتل لأخيه حيث قتله حتى انتهى إلى المغارة، وهى من آيات اللّه تعالى، وآياته لا تُحصى.

وقرأنا فى تاريخ ابن المعلّى الأسدى أنّ تلك المغارةصلّى فيها ابراهيم وموسى وعيسى ولوط وأيوب، عليهم وعلى نبيّنا الكريم أفضل الصلاة والسلام.

وعليها مسجد قد أُتقن بناءه، ويُصعد إليه على أدراج، وهو كالغرفة المستديرة، وحولها أعواد مشرجبة مطيفة بها، وبه بيوت ومرافق للسكنى، وهو يفتح كلّ يوم خميس، والسُّرُج من الشمع والفتائل تَقِد فى المغارة، وهى متّسعة.

وفى أعلى الجبل كهف منسوب لآدمصلى الله عليه و سلم، وعليه بناء، وهو موضع مبارك، وتحته فى حضيض الجبل مغارة تعرف بمغارة الجُوع، ذُكر أنّ سبعين نبيّاً ماتوا فيها جوعاً، وكان عندهم رغيف، فلم يزل كلّ واحد منهم يؤثر بهصاحبه ويدور عليه من يد إلى يد حتى لحقتهم المنيّة،صلوات اللّه عليهم. وعلى هذه المغارة أيضاً مسجد مبنى، وأبصرنا فيه

ص:۵۸

السُّرُج تَقِد نهاراً.

ولكلّ مشهد من هذه المشاهد أوقاف معيّنة من بساتين وأرض بيضاء ورباع، حتى إنّ البلد تكاد الأوقاف تستغرق جميع ما فيه.

وكلّ مسجد يُستحدث بناؤه أو مدرسة أو خانقة يُعيّن لها السلطان أوقافاً تقوم بها وبساكنيها والملتزمين لها، وهذه أيضاً من المفاخر المخلّدة.

ومن النساء الخواتين ذوات الأقدار من تأمر ببناء مسجد أو رباط أو مدرسة وتُنفِق فيها الأموال الواسعة وتعيّن لها من مالها الأوقاف.

ومن الأُمراء من يفعل مثل ذلك، لهم فی هذه الطريقة المباركة مُسارعة مشكورة عند اللّه عزّ وجلّ.

وبآخر هذا الجبل المذكور، فی آخر البسيط البستانی الغربی من هذا البلد، الربوة المباركة المذكورة فی كتاب اللّه تعالی، مأوی المسيح وأُمّه،صلوات اللّه عليهما، وهی من أبدع مناظر الدنيا حسناً وجمالًا وإشراقاً، وإتقان بناء واحتفال تشييد وشرف وضع، هی كالقصر المشيّد، ويُصعَد إليها علی أدراج، والمأوی المبارك منها مغارةصغيرة فی وسطها، وهی كالبيت الصغير، وبإزائها بيت يقال: إنّه مصلّی الخضرصلی الله عليه و سلم، فيبادر الناس للصلاة بهذين الموضعين المباركين، ولا سيّما المأوی المبارك، وله باب حديدصغير ينغلق دونه، والمسجد يطيف بها، ولها شوارع دائرة، وفيها سقاية لم يُرَ أحسن منها، قد سِيقَ إليها الماء من

ص:۵۹

علو، وماؤهـا ينصبّ على شـاذَرْوان «(۱)» فی الجـدار متّصـل بحـوض من رخـام يقـع المـاء فیه، لم يُرَ أحسن من منظره، وخلف ذلک مطاهر يجری الماء فی کلّ بيت منها ويستدير بالجانب المتّصل بجدار الشاذروان.

وهـذه الربوة المبارکـة رأس بساتين البلـد ومَقْسِم مائه، ينقسم فيها الماء على سـبعة أنهار، يأخـذ کلّ نهر طريقه، وأکبر هذه الأنهار نهر يُعرف بثوار، وهو يشقّ تحت الربوة، وقد نُقِر له فی الحجر الصلد أسفلها حتی انفتح له متسرّب واسع کالغار، وربّما انغمس الجَسُور من سُبّاح الصبيـان أو الرجـال من أعلی الربوة فی النهر وانـدفع تحت المـاء حتی يشقّ متسـرّبه تحت الربوة ويخرج أسـفلها، وهی مخـاطرة کبيرة.

ويُشـرَف من هذه الربوة على جميع البساتين الغربية من البلد، ولا إشـراف کإشرافها حسناً وجمالًا واتّساعَ مسرح للأبصار، وتحتها تلک الأنهار السـبعة تتسـرّب وتسيح فی طرق شتّی، فتحار الأبصار فی حسن اجتماعها وافتراقها واندفاع انصبابها، وشرفُ موضوع هذه الربوة ومجموع حسنها أعظم من أن يحيط به وصف واصف فی غلوّ مدحه، وشأنها فی موضوعات الدّنيا الشريفة خطير کبير.

ومن أحفل هـذه المشاهـد مشـهد منسوب لعلیّ بن أبی طالب رضـی الله عنه، قد بُنی عليه مسـجد حفيل رائق البناء، وبإزائه بسـتان کلّه نارنج، والماء

۱- الشاذروان: حائط صغير بجوار الجدار الأصلی لتقويته.

ص:۶۰

یطرد فیه من سقایهٔ معیّنهٔ، والمسجد کلّه ستور معلّقهٔ فی جوانبهصغار وکبار.

ومن المشاهد المکرّمهٔ مشهد سعد بن عُبادهٔ رئیس الخزرج،صاحب رسول اللّهصلی الله علیه و سلم، وهو بقریهٔ تعرف بالمَنِیحهٔ شرقی البلد وعلی مقدار أربعهٔ أمیال منه، وعلی قبره مسجدصغیر حسن البناء، والقبر فی وسطه، وعند رأسه مکتوب: هذا قبر سعد بن عبادهٔ رأس الخزرج،صاحب رسول اللّهصلی الله علیه و سلم.

ومن مشاهد أهل البیت رضی اللّه عنهم: مشهد أُمّ کلثوم ابنهٔ علیّ بن أبی طالب، رضی اللّه عنهما، ویقال بها زینب الصغری، وأُمّ کلثوم کنیهٔ أوقعها علیها النبیصلی الله علیه و سلم، لشبهها بابنته أُمّ کلثوم، رضی اللّه عنها، واللّه أعلم بذلک، ومشهدها الکریم بقریهٔ قبلیّ البلد تعرف براویهٔ علی مقدار فرسخ، وعلیه مسجد کبیر، وخارجه مساکن، وله أوقاف، وأهل هذه الجهات یعرفونه بقبر الستّ أُمّ کلثوم، مشَینا إلیه وبتنا به وتبرّکنا برؤیته، نفعنا اللّه بذلک.

وبالجبّانهٔ التی بغربی البلد، من قبور أهل البیت، کثیر، رضی اللّه عنهم، منها قبران علیهما مسجد یقال إنّهما من ولد الحسن والحسین، رضی اللّه عنهما، ومسجد آخر فیه قبر یقال إنّه لسکینهٔ بنت الحسین، رضی اللّه عنهما، أو لعلّها سُکینهٔ أُخری من أهل البیت.

ومن المشاهد أیضاً قبر بجامع النَیْرب، فی بیت بالجهة الشرقیّهٔ منه، یقال إنّه لأُمّ مریم، رضی اللّه عنها.

وبقریهٔ داریّهٔ «(۱)» قبر أبی مسلم الخولانی رضی الله عنه، وعلیه قبّهٔ هی

۱- تکتب عادهٔ: داریا، بالألف.

ص:۶۱

علامة القبر، وبها أیضاً قبر أبی سلیمان الدارانی رضی الله عنه.

وبین هذه القریة وبین البلد مقدار أربعة أمیال، وهی لجهة الغرب منه.

ومن المشاهد الکریمة التی لم نعاینها ووصفت لنا قبرا شیث ونوح علیهما السلام، وهما بالبِقاع، وهی علی یومین من البلد، وحدّثنا من ذَرَع قبر شیث فألفی فیه أربعین باعاً، وفی قبر نوح ثلاثین، وبإزاء قبر نوح قبر ابنة له، وعلی هذه القبور بناء، ولها أوقاف کثیرة، ولها قیّم یلتزمها.

ومن المشاهد المبارکة أیضاً، بالجبّانة الغربیّة وبمقربة من باب الجابیة، قبر أُویس القرنی رضی الله عنه، وقبور خلفاء بنی أُمیة رحمهم الله، یقال: إنّها بإزاء باب الصغیر بمقربة من الجبّانة المذکورة، وعلیها الیوم بناء یُسکَن فیه.

والمشاهد المبارکة فی هذه البلدة أکثر من أن تنضبط بالتقیید، وإنّما رُسِم من ذلک ما هو مشهور ومعلوم.

ومن المشاهد الشهیرة أیضاً مسجد الأقدام، وهو علی مقدار میلین من البلد ممّا یلی القبلة علی قارعة الطریق الأعظم الآخذ إلی بلاد الحجاز والساحل ودیار مصر، وفی هذا المسجد بیتصغیر فیه حجر مکتوب علیه: کان بعض الصالحین یری النبیّصلی الله علیه و سلم فی النوم فیقول: هاهنا قبر أخی موسیصلی الله علیه و سلم، والکثیب الأحمر علی الطریق بمقربة من هذا الموضع، وهو بین غالیة وغُویلیة کما ورد فی الأثر، وهما موضعان.

وشأن هذا المسجد فی البرکة عظیم، ویقال: إنّ النور ما خلا قطّ من هذا الموضع الذی یذکر أنّ القبر فیه حیث الحجر المکتوب، وله أوقاف کثیرة.

ص:۶۲

فأمّا الأقـدام ففى حجارهٔ فى الطريق إليه مُعْلَم عليها، تَجـد أثر القدم فى كلّ حجر، وعدد الأقدام تسع، ويقال: إنّها أثر قدم موسـى عليه السلام، واللَّه أعلم بحقيقهٔ ذلك، لا إله سواه «(۱)».

هـذا وقـد أخـذنا من رحلـهٔ ابن جبير المواضـيع اللّازمـهٔ، وإلّا فالساير فى الكتاب يقف على أُمور لم نذكرها، والكلّ يدلّ على أنّ البناء على القبور وصيانتها عن الانطماس وزيارتها فى فترات مختلفهٔ كان أمراً رائجاً فى خير القرون الذى جُعِل مقياساً بين الحقّ والباطل.

ابن الحجاج والقبّة البيضاء على قبر الإمام على عليه السلام:

إنّ الحسـين بن أحمد بن محمد المعروف بابن الحجّاج البغدادى أحد الشـعراء المفلقين فى القرنين الثالث والرابع (۲۶۲- ۳۹۲ ه) أنشأ قصيدته الفائيهٔ فى مدح الإمام أمير المؤمنين، وأنشدها فى الحضرهٔ العلويّهٔ عندما زارها يقول فى مستهلّها:

ياصاحب القبّهٔ البيضاء على النجفِ من زارَ قبرك واستشفى لديك شُفى

زوروا أبا الحسن الهادى لعلّكم تحظون بالأجر، والاقبال والزلف «(۲)»

۱- قد نقلنا هذه النصوص برمّتها عن رحلهٔ ابن جبير طبع دار صادر عام ۱۳۸۴، فراجع فيما يرجع إلى مصر صفحهٔ ۱۹- ۲۴، وفيما يرجع إلى مكهٔ المكرّمهٔ صفحهٔ ۸۷، ۱۴۱ و ۱۴۲، وفيما يرجع إلى المدينهٔ المنوّرهٔ صفحهٔ ۱۷۳- ۱۷۴، وفيما يرجع إلى مشاهد الكوفهٔ صفحهٔ ۱۸۷- ۱۹۸، وفيما يرجع إلى بغداد صفحهٔ ۲۰۲، وما يرجع إلى الشام صفحهٔ ۲۴۶- ۲۴۹ و ۲۵۳- ۲۵۴.

۲- إقرأ ترجمته فى يتيمهٔ الدهر ۳: ۲۵؛ معجم الأُدباء ۴: ۶؛ المنتظم ۷: ۲۱۶؛ تاريخ بغداد ۸۰: ۱۴؛ وفيات الأعيان ۱: ۱۷۰؛ الكامل لابن الأثير ۹: ۶۳ إلى غير ذلك من مصادر الترجمهٔ؛ وفى روضات الجنّات ۳: ۱۴۸- ۱۵۵ له ترجمهٔ ضافيهٔ.

ص:۶۳

والقصيدة تعرب عن وجود البناء والقبّة البيضاء على القبر، والزلف والتفاف الزائرين حوله فى عصره، ومع ذلك يدّعى بعض الوهابيين، أنّ البناء على القبور لم يكن فى خير القرون وأنّه من البدع المستحدثة.

ولأجل شيوع البناء على القبور فى جميع الأقطار الإسلاميّة نجد أنّ الأمير محمد بن اسماعيل اليمانى الذى توهّب مع كونه زيدياً يفترض على نفسه ويقول فى كتابه: وهذا أمر عمّ البلاد وطبق الأرض شرقاً وغرباً بحيث لا بلدة من بلاد الإسلام إلّافيها قبور ومشاهد، ولا يسع عقل عاقل أنّ هذا منكر يبلغ إلى ما ذكرت من الشناعة ويسكت علماء الإسلام «(۱)».

فلو كانت هذه سيرة المسلمين من خير القرون إلى عصرنا فلماذا لا تكون حجّة؟ فلو كان التهديم أمراً واجباً فلماذا ترك الخلفاء تلك الفريضة؟! فهل يصحّ لنا اتّهامهم بالتسامح فى أمر الدين مع أنّ الصحابة والتابعين مرّوا على تلك الآثار ولم ينبسوا فيها ببنت شفة؟

وإذا لم يكن ذلك الإجماع حجّة، فأىّ إجماع يكون حجّة شرعيّة؟

فهذه النصوص من المؤرّخين تدلّ بوضوح على جريان السيرة على بناء القباب والأبنية على قبور الأولياء من دون أن يخطر ببال أحد أنّه مقدمة للشرك ومفضٍ إليه، فإذا لم يكن مثل هذا الإجماع حجّة فأىّ

۱- الأمير محمد بن اسماعيل اليمانى ت ۱۱۸۶ ه تطهير الاعتقاد: ۱۷، ثمّ إنّه حاول أن يُجيب عن هذا الاستنكار بما الإعراض عن ذكره أحسن.

ص:۶۴

إجماعٍ حجّة؟

والعجب من ابن بليهد قاضـى الحكومة السـعودية أيام تدمير آثار رسول اللّهصلى الله عليه و آله عام ۱۳۴۴ ه فبعـد ما نفّذ ما أُمر به من قبل المشايخ، نشـر بياناً فى جريدة أُمّ القرى فى عددها الصادر فى شـهر جمادى الآخر من شـهور سـنة ۱۳۴۵ ه وممّـا جاء فيه قوله: إنّ القباب على مراقد العلماءصار متداولًا منذ القرن الخامس الهجرى.

فهل هذاصـحيح أو افتراء أمام كلّ هذه النصوص من المسـعودى وغيره؟ وليس البحث فى خصوص العلماء، بل مطلق قبور المسـلمين، نبيّاً كان أو وليّاً،صحابيّاً كان أو تابعياً، فقهياً كان أو محدّثاً.

ونعم ما قال السيد المحقّق محسن الأمين فى قصيدته المسمّاة بالعقود الدُّريّة فى ردّ شبهات الوهابية:

أو ليس أُمّة أحمد إجماعها فيه الصوابُ وحجّةٌ لم تردد

وعلى ضلالٍ كلّها لم تجتمع فيما رويتم فى الحديث المسندِ

مضت القرون وذى القباب مشيّدة والناس بين مؤسس ومجدّد

فى كلّ عصر فيه أهل الحلّ و العقد الذين بغيرهم لم يُعقد

لم يُنكروا أبداً على من شادها شيدت ولا من منكر ومغند

مِنْ قبل أنْ تلد ابنها تيمية أو يخلق الوهاب بعضَ الأعبد

أفأىّ إجماع لكم أقوى على أمثاله من مورد لم يورد

فبسيرة للمسلمين تتابعت فى كلّ عصر نستدلّ ونقتدى

أقوى من الإجماع سيرتهم ومن قد حاد عنها فهو غير مسدّد

هيهات ليس نبيّاً إنّ بليهد فى الناس لم يُخطئ ولم يتعمّد

ص:۶۵

کلّا ولا العلماء قد حصرت به هی فی بقاع الأرض ذات تعدّد

کلّا ولا من وافقوه لخوفهم أو جهلهم من خائف ومقلّد

والجُلُّ من علماء طیبة ساکت للخوف مکفوف اللسان مع الید «(۱)»

کیف یدّعی الإجماع علی التحریم مع أنّ فقهاء المذاهب الأربعة فی العصر الحاضر اتّفقوا علی الکلمة التالیة: یکره أن یبنی القبر ببیت أو قبّة أو مسجد «(۲)»، أین الکراهة من الحرمة، وأین هی من الشرک؟

وهذا النووی شارحصحیح مسلم یقول فی شرح حدیث أبی الهیاج الذی سیوافیک نصّه: أمّا البناء فإن کان فی ملک البانی فمکروه وإن کان فی مقبرة مسبلة فحرام، نصّ علیه الشافعی والأصحاب «(۳)».

إنّ التحریم فی الصورة الثانیة لکونه مزاحماً للانتفاع، وعلی خلاف أهداف الواقف وأغراضه، وأین هو من البناء علی أرض مشتراة أو مهداة أو موات فلا تترتّب علیها تلک الحرمة.

دفن النبیّ الأکرمصلی الله علیه و آله فی بیته الرفیع ولم یخطر ببال أحد من الصحابة الحضور أنّ البناء علی القبر حرام وأنّهصلی الله علیه و آله نهی عنه نهیاً مؤکداً، ولمّا کان البیت متعلّقاً بالسیدة عائشة جعلوا فی وسطه ساتراً، ولمّا توفّی الشیخان أوصیا بدفنهما فی حجرة النبیصلی الله علیه و آله تبرکاً بذاته ومکانه، ولم تُسْمَع عن أی ابن انثی نعیرةُ أنّه حرام ولا مکروه، وعلی ذلک استمرّت سیرة المسلمین فی حقّ العلماء والأولیاء، یدفنونهم فی البیوت المعدّة

۱- محسن الأمین، کشف الارتیاب: ۲۹۵ وهی مطبوعة فی آخر الکتاب.

۲- الجزیری، الفقه علی المذاهب الأربعة ۱: ۴۳۱.

۳- النووی، شرح صحیح مسلم ج ۱۷ کتاب الجنائز ط مصر.

ص:۶۶

لـذلك، أو يرفعون لمراقـدهم قواعـد وسـقفاً بعد الدفن، تكريماً لهم و تقدير اًلتضـحياتهم، ولم يخطر ببال أحد أنّه على خلاف الدين والشرع.

وهذا عمل المسـلمين وسـيرتهم القطعيّة فى جميع الأقطار والأمصار، على مرأى ومسـمع الجميع وإنْ اختلفت نزعاتهم، من بدء الإسلام إلى هذا العصـر، من الشـيعة والسـنّة، وأى بلاد من بلاد الإسلام من مصر والعراق أو الحجاز أو سوريا، وتونس ومراكش وإيران، وهلمّ جرّا، ليس فيها قبور مشيّدة، وضرائح منجدة، وهؤلاء أئمة المذاهب:

الشافعى فى مصر، وأبو حنيفة فى بغداد، ومالك بالمدينة، وتلك قبورهم من عصرهم إلى اليوم شاهقة القباب، شامخة المبانى، غير أنّ الوهابيّين لمّا استولوا على المدينة هدموا قبر مالك.

وهذه القبور قد شُيّدت وبنيت فى الأزمنة التى كانت حافلة بالعلماء وأرباب الفتاوى، وزعماء المذاهب، فما أنكر منهم نكر، وليس هذا رائجاً بين المسـلمين فقط، بل جرى على هذا جميع عقلاء العالم، بل يعدّ تعمير قبور الشخصـيات من غرائز البشـر ومقتضـيات الحضارة وشارة الرقىّ، فكلّ هـذا دليل على الجواز لو لم نقل يفوق ذلك، ولو لم تكن السـيرة المسـلّمة بين المسـلمين والعقلاء عامّة غير مفيدة فى المقام، فلا يصحّ الاستناد إلى أيّة سيرة قاطعة بين المسلمين أو الناس.

وليس يصحّ فى الأذهان شىء إذا احتاج النهار إلى دليل

ثمّ إنّ الوهابيّين تمسّـكوا بروايات، إمّا عديمـة الدلالة، أو ضـعيفة السـند، وسـنذكر فى الفصل الآتى بشـكل عام مجملَ ما تمسّـكوا به ليتبيّن مدى وعيهم.

ص:۶۷

الفصل الرابع: ذرائع الوهابية فى هدم الآثار

اشارة

استدلّت الوهابية بروايات نذكرها واحدةً بعد الأُخرى:

الأُولى: رواية أبى الهياج الأسدى

اشارة

روى مسلم فيصحيحه قال: حدّثنا يحيى بن يحيى وأبو بكر بن أبى شيبة وزهير بن الحرب، قال يحيى: أخبرنا، وقال الآخران: حدّثنا وكيع عن سفيان، عن حبيب بن أبى ثابت، عن أبى وائل، عن أبى الهياج الأسدى قال: قال لى علىّ بن أبى طالب: ألا أبعثك على ما بعثنى عليه رسول اللّه .. أن لا تدع تمثالًا إلّاطمسته ولا قبراً مشرفاً إلّاسوّيته «(۱)».

زعم المستدلّ أنّ معناه: ولا قبراً عالياً إلّاسوّيته بالأرض.

أقول: الاستدلال بالحديث فرعصحّة سنده، وتماميّة دلالته،

۱- مسلم، الصحيح ۳: ۶۱ كتاب الجنائز؛ الترمذى، السنن ۲: ۲۵۶ باب ما جاء فى تسوية القبور؛ النسائى، السنن ۴: ۸۸ باب تسوية القبر.

ص:۶۸

ولکنّه موهون من کلا الجانبین.

أمّا السند، فیکفی أنّ علماء الرجال تحدّثوا فی رجال الحدیث ونقلوا تصریح الأئمهٔ بضعفهم، وهؤلاء عبارهً عن:

۱- وکیع.

۲- سفیان الثوری.

۳- حبیب بن أبی ثابت.

۴- أبو وائل الأسدی.

وإلیک أقوال العلماء فی حقّهم:

۱- وکیع:

هو وکیع بن الجراح بن ملیح الرواسی الکوفی، روی عن عدّهٔ، منهم: سفیان الثوری، وروی عنه جماعهٔ منهم: یحیی بن یحیی وهو کما ورد فی حقّه المدح، ورد فی حقّه الجرح کثیراً، وهذا ابن حجر یعرّفه فی تهذیب التهذیب بالنحو التالی: عن الإمام ابن حنبل: کان وکیع أحفظ من عبد الرحمن بن مهدی کثیراً، وقال فی موضع آخر: ابن مهدی أکثر تصحیفاً من وکیع ووکیع أکثر خطأً منه.

وقال ابن عماد: قلت لابن وکیع: عدّوا علیک بالبصرهٔ أربعهٔ أحادیث خلطتَ فیها؟ فقال: حدّثتهم بعبادان بنحو من ألف وخمسمائهٔ، وأربعهٔ لیس بکثیر فی ألف وخمسمائهٔ.

وقال علیّ بن المدینی: کان وکیع یلحن ولو حدّثَ بألفاظه لکان عَجَباً.

ص:۶۹

وقال محمد بن نصر المروزی: کان یُحدّث بآخره من حفظه فیغیّر ألفاظ الحدیث کأنّه یحدّث بالمعنی ولم یکن من أهل اللسان «(۱)».

وقال الذهبی فی میزان الاعتدال بعدما مدحه: قال ابن المدینی:

کان وکیعَ یلحن ولو حدّث بألفاظه کان عجباً «(۲)».

۲- سفیان الثوری:

وهو سفیان بن سعید بن مسروق الثوری الکوفی، فقد مدحوه، ولکن الذهبی یقول: إنّه کان یدلِّس عن الضعفاء، ولکن کان له نقد وذوق، ولا عبرة بقول من قال یدلِّس ویکتب عن الکذّابین «(۳)».

وقال ابن حجر: قال ابن المبارک: حدّث سفیان بحدیث فجئته وهو یدلِّس، فلمّا رآنی استحیی وقال: نرویه عنک؟ «(۴)».

وقال فی ترجمة یحیی بن سعید بن فروخ: قال أبو بکر وسمعت یحیی یقول: جهد الثوری أن یدلِّس علیّ رجلًا ضعیفاً فما أمکنه «(۵)».

والتدلیس هو أن یروی عن رجل لم یلقه وبینهما واسطة فلا یذکر الواسطة.

وقال أیضاً فی ترجمة سفیان: قال ابن المدینی عن یحیی بن سعید: لم یلق سفیان أبا بکر بن حفص ولا حیان بن إیاس، ولم یسمع من

۱- ابن حجر، تهذیب التهذیب ۱۱: ۱۲۳، ۱۳۱.

۲- الذهبی، میزان الاعتدال ۴: ۳۳۶.

۳- الذهبی، میزان الاعتدال ۲: ۱۶۹ برقم ۳۳۲۲.

۴- ابن حجر، تهذیب التهذیب ۴: ۱۵ فی ترجمة سفیان.

۵- ابن حجر، تهذیب التهذیب ۱۱: ۲۱۸.

ص:۷۰

سعید بن أبی البردة، وقال البغوی: لم یسمع من یزید الرقاشی، وقال أحمد: لم یسمع من سلمة بن کهیل حدیث المسائیة «(۱)» یضع ما له حیث یشاء، ولم یسمع من خالد بن سلمة بتاتاً ولا من ابن عون إلّاحدیثاً واحداً «(۲)».

وهذا تصریح من ابن حجر بکون الرجل مُدلِّساً، ربّما یروی عن أُناس یوهم أنّه لقیهم ولم یلقَهُم ولم یسمع منهم.

۳- حبیب بن أبی ثابت:

هو حبیب بن أبی ثابت قیس بن دینار، وَثّقهُ بعض، ولکن قال ابن حبّان فی الثّقاة: کان مدلّساً، وقال العقیلی: غمزه ابن عون، وقال القطّان:

له غیر حدیث عن عطاء، لا یُتابع علیه ولیست محفوظة.

وقال ابن خزیمة فیصحیحه: کان مدلّساً «(۳)».

وقال ابن حجر أیضاً فی موضع آخر: کان کثیر الإرسال والتدلیس، مات سنة ۱۱۹ ه.

ونقل عن کتاب الموضوعات لابن الجوزی من نسخة بخطّ المنذری أنّه نقل فیه حدیثاً عن أُبیّ بن کعب فی قول جبرئیل: لو جلست معک مثلما جلس نوح فی قومه ما بلغت فضائل عمر، وقال: لم یُعِلْه ابن الجوزی إلّابعبد اللّٰه بن عمّار الأسلمی شیخ حبیب بن ثابت «(۴)».

۱- العبد المعتق.

۲- ابن حجر، تهذیب التهذیب ۴: ۱۱۵.

۳- ابن حجر، تهذیب التهذیب ۲: ۱۷۹.

۴- ابن حجر، تهذیب التهذیب ۱: ۱۴۸ برقم ۱۰۶.

ص:۷۱

۴- أبو وائل الأسدى:

اشارة

هو شـقيق ابن سـلمة الكوفى، كان منحرفاً عن علىّ بن أبى طالب، قال ابن حجر: قيل لأبى وائل: أيّها أحبُّ إليك علىّ أم عثمان؟ قال: كان علىّ أحبّ إلىّ ثمّصار عثمان «(۱)».

ويكفى فى قدحه أنّه كان من ولاة عبيد اللَّه بن زياد، قال ابن أبى الحديد: قال أبو وائل: استعملنى ابن زياد على بيت المال بالكوفة.

هـذا كلّه حول سـند الروايـة وهؤلاء رواتها، ولو ورد فيهم مـدح فقد ورد فيهم الذم، وعند التعارض يقدم الجارح على المادح فيسـقط الحديث عن الاستدلال.

ويكفى أيضـاً فى ضـعف الحـديث أنّه ليس لروايـة أعنى أبا الهياج فى الصـحاح والمسانـد حـديث غير هـذا، فكيف يسـتدلّ بحـديث يشتمل على المدلِّسين والمضعِّفين؟ وكيف يُعْدَل بهذا الحديث عن السيرة المستمرّة بين المسلمين؟!

والآن إليك بيان عدم دلالة الحديث على الموضوع بتاتاً:

ضعف دلالة الحديث

إنّ توضيح ضعف دلالة الحديث يتوقّف على بيان معنى اللّفظين الواردين فيه:

۱- ابن حجر، تهذيب التهذيب ۴: ۳۶۲.

ص:۷۲

۱- قبراً مشرفاً.

۲- إلّاسوّیته.

أمّا الأوّل: فقالصاحب القاموس: والشرف، محرکهٔ العلو، ومن البعیر سنامه، وعلی ذلک یحتمل المراد منه مطلق العلوّ، أو العلوّ الخاص کسنام البعیر الذی یعبّر عنه بالمسنَّم ولا یتعیّن أحد المعنیین إلّابالقرینهٔ.

أمّا الثانی: فهو تارهً یُستخدم فی بیان مساواهٔ شیء بشیء فی الطول أو العرض، فیقال: هذا القماش یساوی بهذا الآخر فی الطول.

وأُخری فی التسویهٔ، أی کون الشیء مسطّحاً لا انحناء ولا تعرّج فیه.

والفرق بین المعنیین واضح، فإنّ التسویهٔ فی الأوّل وصف للشیء بمقایسته مع شیء آخر، وفی الثانی وصف لنفس الشیء ولا علاقهٔ له بشیء آخر.

فلو استعمل فی المعنی الأوّل لتعدّی إلی مفعولین: أحدهما بلا واسطهٔ، والآخر بمعونهٔ حرف الجرّ، قال تعالی حاکیاً عن لسان المشرکین وأنّهم یخاطبون آلهتهم بقولهم: «إِذْ نُسَوِّیکُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِینَ»، أی نعدّ الآلههَ الکاذبهٔ مساویهً بربّ العالمین فی العبادهٔ أو فی الاعتقاد بالتدبیر.

وقال سبحانه حاکیاً عن حال الکافرین یوم القیامهٔ: «یَوْمَئِذٍ یَوَدُّ الَّذِینَ کَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّی بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا یَکْتُمُونَ اللَّهَ حَدِیثاً» (النساء/ ۴۲)، أی یودّون أنْ یکونوا تراباً أو میتاً مدفوناً تحت الأرض، ویکون هؤلاء والأرض متساویهٔ.

تری أنّ تلک المادهٔ تعدّت إلی مفعولین وأُدخل حرف الجرّ علی المفعول الثانی.

ص:۷۳

وأمّا إذا استعمل فی المعنی الثانی أی فیما یكون وصفاً للشیء بلا علاقة له بشیء آخر فیكتفی بمفعول واحد، قال سبحانه: «الَّذِی خَلَقَ فَسَوَّی» (الأعلی/ ۲)، وقال سبحانه: «بَلَی قَادِرِینَ عَلَی أَنْ نُسَوِّیَ بَنَانَهُ» (القیامة/ ۴)، وقال سبحانه: «فَإِذَا سَوَّیْتُهُ وَنَفَخْتُ فِیهِ مِنْ رُوحِی فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِینَ» (الحجر/ ۲۹)، ففی جمیع هذه الموارد یراد من التسویة كونها وصفاً للشیء بما هو هو، وهو فیها كنایة عن كمال الخلقة بعیدة عن النقص والاعوجاج.

هذا هو مفهوم اللفظ لغةً، وهلمّ معی ندرس الحدیث وأنّه ینطبق مع أیٍّ من المعنیین.

نلاحظ أنّه تعدّی إلی مفهومٍ واحد، ولم یقترن بالباء، فهو آیة أنّ المراد هو المعنی الثانی، وهو تسطیح الأرض فی مقابل تسنیمه، وبسطه فی مقابل اعوجاجه لا مساواته مع الأرض، وإلّا كان علیه علیه السلام أن یقول:

سوّیته بالأرض، ولم یكتف بقوله سوّیته.

أضف إلی ذلك أنّ ما ذكرناه هو الذی فهمه شرّاح الحدیث ویكون دلیلًا علی أنّ التسطیح سنّة والتسنیم بدعة وأمر علیّ علیه السلام أن تكافح هذه البدعة ویسطّح كلّ قبر مسنّم، وإلیك ذكر نصوصهم:

قال القرطبی فی تفسیر الحدیث: قال علماؤنا: ظاهر حدیث أبی الهیاج منع تسنیم القبور ورفعها وأن تكون واطئة «(۱)».

أقول: إنّ دلالة الحدیث علی منع تسنیم القبور ظاهر، وأمّا دلالتها علی عدم ارتفاعها كما هو ظاهر قوله «ومنع رفعها» فغیر ظاهر، بل

۱- القرطبی، التفسیر ۲: ۳۸۰ تفسیر سورة الكهف.

ص:۷۴

مردود باتّفاق أئمة الفقه على استحباب رفعها قدر شبر «(۱)».

۲- قال ابن حجر العسقلانى فى شرحه على البخارى ما هذا نصّه:

مُسنّماً بضمّ الميم وتشديد النون المفتوحة أى: مرتفعاً، زاد أبو نعيم فى مستخرجه: وقبر أبو بكر وعمر كذلك، واستدلّ به على أنّ المستحب تسنيم القبور، وهو قول أبى حنيفة ومالك وأحمد والمزنى وكثير من الشافعية.

وقال أكثر الشافعية ونصّ عليه الشافعى: التسطيح أفضل من التسنيم، لأنّهصلى الله عليه و آله سطّح قبر ابراهيم، وفعله حجّة لا فعل غيره، وقول السفيان التمّار: رأى قبر النبىّ مسنّماً فى زمان معاوية، لا حجّة فيه، كما قال البيهقى، لاحتمال أنّ قبرهصلى الله عليه و آله وقبريصاحبيه لم تكن فى الأزمنة الماضية مسنّمة- إلى أن قال:- ولا يخالف ذلك قول على عليه السلام: أمرنى رسول اللَّه أن لا أدع قبراً مشرفاً إلّاسوّيته، لأنّه لم يرد تسويته بالأرض، وإنّما أراد تسطيحه جمعاً بين الأخبار، ونقله فى المجموع عن الأصحاب «(۲)».

۳- وقال النووى فى شرحصحيح مسلم: إنّ السنّة أنّ القبر لا يرفع عن الأرض رفعاً كثيراً، ولا يُسنَّم بل يُرفع نحو شبر، وهذا مذهب الشافعى ومن وافقه، ونقل القاضى عياض عن أكثر العلماء أنّ الأفضل عندهم تسنيمها، وهو مذهب مالك «(۳)».

۱- الفقه على المذاهب الأربعة ۱: ۴۲.

۲- إرشاد السارى ۲: ۴۶۸.

۳- صحيح مسلم بشرح النووى ۷: ۳۶ ط الثالثة، دار احياء التراث العربى.

ص:۷۵

ویؤیّد ذلک أنّصاحب الصحیح (مسلماً) عنون الباب ب «باب تسویة القبور» ثمّ روی بسنده إلی تمامه، قال: کنّا مع فضالة بن عبید بأرض الروم، فتوفّیصاحب لنا، فأمر فضال بن عبید بقبره فسوّی، قال:

سمعت رسول اللّهصلی الله علیه و آله یأمر بتسویتها، ثمّ أورد بعده فی نفس الباب حدیث أبی الهیاج المتقدّم «(۱)».

وفی الختام نذکر أُموراً:

۱- القول بوجوب مساواة القبر بالأرض مخالف لما اتّفقت علیه کلمات فقهاء المذاهب الأربعة، وکلّهم متّفقون علی أنّه یندب ارتفاع التراب فوق الأرض بقدر شبر «(۲)».

ولو أخذنا بالتفسیر الذی یرومه الوهابی من حدیث أبی الهیاج من مساواة القبر بالأرض یجب أن یکون القبر لاطئاً مساویاً معه.

۲- لو افترضناصحّة حدیث أبی الهیاج سنداً ودلالة، فغایة ما یدلّ علیه هو تخریب القبر ومساواته بالأرض، ولا یدلّ علی هدم البناء الواقع علیه، فتخریب القباب المشیّدة التی هی مظاهر الودّ لأصحابها استناداً إلی هذا الحدیث عجیب جدّاً.

۳- إنّ الصحابة دفنوا النبیّ الأکرم فی بیته من أوّل یوم، وقد وصّی الخلیفتان بأنْ یُدفنا تحت البناء جنب النبیّ الأکرم تبرّکاً بالقبر وصاحبه، فلو کان البناء علی القبور أمراً محرّماً ومن مظاهر الشرک، فلماذا وارت

۱- المصدر السابق.

۲- الفقه علی المذاهب الأربعة ۱: ۴۲.

ص:۷۶

الصحابة جثمانه الطاهرصلی الله علیه و آله تحت البناء؟ ولماذا أوصی الخلیفتان بالدفن تحته؟

ولمّ‍ا واجهت الوهابیة عمل الصحابة فی مواراة النبیّ قامت بالتفریق وقالت: إنّ الحرام هو البناء علی القبر لا الدفن تحت البناء، وقد دفنوا النبیّ تحت البناء ولم یبنوا علی قبره شیئاً «(۱)».

ونترک هذا الجواب بلا تعلیق، إذ هو فی غایة السقوط، إذ أیّ فرق بین الأمرین، فإنّ البناء علی القبر مَدْعاة للإقبال إلیه والتضرّع إلیه، ففیه فتح لباب الشرک وتوسّل إلیه بأقرب وسیلة ... «(۲)».

فإذا کان البناء علی وجه الإطلاق ذریعة للشرک وتوجّهاً إلی المخلوق، فلماذا نرخّص بعضصوره ونحرّم بعضها الآخر، وما هذا إلّا لأنّ الوهابیة وإن کانوا ینسبون أنفسهم إلی السلفیة، إلّاأنّ السلفیة بعیدون عنهم بعد المشرقین.

إلی هنا تمّت دراسة أبی الهیاج، ولندرس حدیث جابر الذی هو المستمسک الآخر لمدمّری آثار الرسالة.

الثانیة: دراسة حدیث جابر

إنّ الوهابیین یستدلّون بحدیث جابر علی حرمة البناء علی القبور، وقد ورد بنصوص مختلفة، ونحن نذکر نصاً واحداً منها:

روی مسلم فیصحیحه: حدّثنا أبو بکر بن أبی شیبة، حدّثنا

۱- عقیل بن الهادی، ریاض الجنّة، ط الکویت.

۲- جمال الدین القاسمی، محاسن التأویل ۷: ۳۰.

ص:۷۷

حفص بن غياث، عن ابن جريـج، عن أبی الزبیر، عن جابر قال: نهی رسول اللّهصـلی الله علیه و آله أن یجصّـص القبر، وأن یقعد علیه، وأن یُبنی علیه «(۱)».

وحدیث جابر هذا لا یحتجّ به، لکونه غیرصحیح سنداً وضعیف دلالةً.

أمّا الأوّل: فلأنّ جمیع أسانیده مشتملة علی رجلین هما فی غایة الضعف:

۱- ابن جریج: وهو عبد الملک بن عبد العزیز بن جریج.

۲- أبو الزبیر: وهو محمد بن مسلم الأسدی.

أمّا الأول: فإلیک کلمات أئمة الرجال فی حقّه:

سئل یحیی بن سعید عن حدیث ابن جریج قال: فقال: ضعیف، فقیل له: إنّه یقول: أخبرنی؟ قال: لا شیء .. کلّه ضعیف، وقال أحمد بن حنبل: إذا قال ابن جریج: قال فلان وقال فلان جاء بمناکیر.

وقال مالک بن أنس: کان ابن جریج حاطب لیل.

وقال الدارقطنی: یُجتنب تدلیس ابن جریج، فإنّه قبیح التدلیس، لا یدلِّس إلّافی ما سمعه من مجروح.

وقال ابن حبان: کان ابن جریج یدلِّس فی الحدیث «(۲)».

۱- لاحظ للوقوف علی متونها المختلفة وأسانیدها: صحیح مسلم، کتاب الجنائز ۳: ۶۲؛ والسنن للترمذی ۲: ۲۰۸ ط المکتبة السلفیة؛ وصحیح ابن ماجة ۱: ۴۷۳ کتاب الجنائز؛ وصحیح النسائی ۴: ۸۷- ۸۸؛ وسنن أبی داود ۳: ۲۱۶ باب البناء علی القبر؛ ومسند أحمد ۳: ۲۹۵ و ۳۳۲، ورواه أیضاً مرسلًا عن جابر: ۳۹۹.

۲- تهذیب التهذیب ۶: ۲- ۴ و ۵- ۶ ط دار المعارف العثمانیة.

ص:۷۸

وأمّا الثانی: فإلیک أقوال علماء الرجال فیه:

فعن إمام الحنابلة عن أیوب أنّه کان یعتبر أبا الزبیر ضعیف الروایة.

وعن شعبة: لم یکن فی الدنیا أحبّ إلیّ من رجل یقدِمُ فأسأله عن أبی الزبیر، فقدمت مکّة فسمعت منه، فبینا أنا جالس عنده إذ جاءه رجل فسأله عن مسألة فردّ علیه، فافتری علیه، فقلت: یا أبا الزبیر تفتری علی رجل مسلم؟ قال: إنّه أغضبنی، قلت: ومن یغضبک تفتری علیه؟ لا رویت عنک شیئاً.

وعن ورقاء قال: قلت لشعبة: ما لَکَ ترکت حدیث أبی الزبیر؟

قال: رأیته یزن ویسترجع فی المیزان.

وقال ابن أبی حاتم: سألت أبی عن أبی الزبیر، فقال: یُکتب ولا یحتجّ به، قال: وسألت أبا زرعة عن أبی الزبیر، فقال: یروی عنه الناسُ، قلت: یُحتجُّ بحدیثه؟ قال: إنّما یحتجّ بحدیث الثّقاة «(۱)».

باللّه علیک، أیصحّ الاستدلال بهذا الحدیث؟ أفهل یصحّ هدم آثار النبوّة والرسالة والصحابة بهذه الروایة؟

علی أنّ بعض الأسانید مشتمل علی عبد الرحمن بن أسود المتّهم بالکذب والوضع.

هذا کلّه ما یتعلّق بالسند.

وأمّا الثانی: أی المتن، ففیه ملاحظتان:

۱- تهذیب التهذیب، ترجمة أبی الزبیر ۹: ۴۴۲ ط حیدر آباد- دکن عام ۱۳۲۶؛ ولاحظ الطبقات الکبری ۵: ۴۸۱.

ص:۷۹

الأُولی: أنّ الحدیث روی بصورٍ ست، مع أنّ النبیّ نطق بصورهٔ واحدهٔ، ولو رجعت إلی متونه المبعثرهٔ فی المصادر التی أوعزنا إلیها تری فیها الاضطراب العجیب، وإلیکصورها:

۱- نهی رسول اللَّه عن تجصیص القبر والاعتماد علیه.

۲- نهی رسول اللَّهصلی الله علیه و آله عن الکتابهٔ علی القبر.

۳- نهی رسول اللَّهصلی الله علیه و آله عن تجصیص القبر، والکتابهٔ والبناء علیه، والمشی علیه.

۴- نهی رسول اللَّهصلی الله علیه و آله عن الجلوس علی القبر، وتجصیصه، والبناء والکتابهٔ علیه.

۵- نهی رسول اللَّهصلی الله علیه و آله عن الجلوس علی القبر وتجصیصه والبناء علیه.

۶- نهی رسول اللَّهصلی الله علیه و آله عن الجلوس علی القبر وتجصیصه والبناء علیه، والزیارهٔ والکتابهٔ علیه «(۱)».

مضافاً إلی اختلافات أُخری فی أداهٔ مقصود واحد، فیعبّر عنه تارهً بالاعتماد، وأُخری بالوطء، وثالثهٔ بالقعود.

ومن المعلوم أنّ الاعتماد غیر الوطء، وهما غیر القعود، فمع هذا الاضطراب والاختلاف فی المضمون لا یمکن لأیّ فقیه أن یعتمد علیه؟!

الثانیهٔ: أنّ الحدیث علی فرضصحّته لا یُثبت سوی ورود النهی

۱- لاحظ فی الوقوف علی المتون المختلفهٔ للحدیث المصادر التی أوعزنا إلیها.

ص:۸۰

من النبى، ولكن النهى منه تحريمى ومنه تنزيهى، وبعبارة أُخرى: نهى تحريم، ونهى كراهة، وقد استعمل النهى فى كلمات الرسول فى القسم الثانى كثيراً، ولأجل ذلك حمله الفقهاء على الكراهة، فترى الترمذى يذكر هذا الحديث فيصحيحه تحت عنوان كراهية تجصيص القبور، والسندى شارحصحيح ابن ماجة ينقل عن الحاكم النيسابورى أنّه لم يعمل بهذا النهى (بالمضمون التحريمى) أحد من المسلمين، بدليل أنّ سيرة المسلمين قائمة على الكتابة على القبور.

وأمّا الكراهة فربّما تكون مرتفعة بالنسبة إلى المصالح العظيمة المترتبة عليه، كما إذاصار البناء على القبر سبباً لحفظ الآثار الإسلامية، وإظهار المودّة لصاحب القبر الذى فرض اللّه مودّته على الناس «۱»، أو يكون لاستظلال الزائر وتمكّنه من تلاوة القرآن وإهداء ثوابه إليصاحب القبر، إلى غير ذلك من الأُمور التى يتمكّن الإنسان منها تحت الظلّ لا تحت الشمس ولا فى برد الليل، فالنهى التنزيهى أشبه بالمقتضيات التى ترتفع بأقوى منها.

الثالثة: أحاديث ثلاثة فى الميزان

فقد ورد فى ذلك المجال أحاديث أُخر نذكرها بسندها ومتنها:

روى ابن ماجة فيصحيحه ما يلى:

ص:۸۱

۱- حـدّثنا محمـد بن يحيى، حدّثنا محمـد بن عبـد اللَّه الرقاشـى، حـدّثنا وهب، حـدّثنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، عن القاسم بن مخيمرة، عن أبى سعيد: أنّ النبىّ نهى أن يُبنى على القبر «(۱)».

ويذكر ابن حنبل حديثاً آخر بسندين هما:

۲- حـدّثنا حسن، حـدّثنا ابن لهيعـة، حدّثنا يزيد بن أبى حبيب، عن ناعم مولى أُمّ سـلمة، عن أُمّ سـلمة قالت: نهى رسول اللَّهصـلى الله عليه و آله أن يُبنى على القبر أو يُجصّص.

۳- علىّ بن اسـحاق، حـدّثنا عبد اللَّه بن لهيعة، حدّثنى بريد بن أبى حبيب، عن ناعم مولى أُمّ سـلمة: أنّ النبىّ نهى أن يجصّـص قبر أو يبنى عليه أو يجلس عليه «(۲)».

فسند الحديث الأوّل يشمل على (وهب)، وهو مردّد بين سبعة عشر رجلًا، وفيهم الوضّاعون والكذّابون «(۳)».

والحـديث الثـانى والثـالث لا يُحتـجّ بهما، لاشـتمالهما على «عبـد اللَّه ابن لهيعـة» الـذى يقول فيه ابن معين: ضـعيف لا يحتـجّ به، ونقل الحميدى عن يحيى بن سعيد: أنّه كان لا يراه شيئاً «(۴)».

هذه حال الأحاديث التيصارت ذريعة بيد الوهابيين لتدمير الآثار الإسلامية منذ أن استولوا على الحرمين الشريفين، حيث لا تمرّ

۱- صحيح ابن ماجة ۱: ۴۷۴.

۲- مسند أحمد ۶: ۲۹۹.

۳- ميزان الاعتدال ۳: ۳۵۰- ۳۵۵.

۴- ميزان الاعتدال ۲: ۴۷۶؛ وتهذيب التهذيب ۱: ۴۴۴.

ص:٨٢

سنة إلّاويدمّر أثر من الآثار الإسلاميّة بحجّة توسيع الحرم الشريف، حتى المكتبات وبيوتات بنى هاشم ومدارسهم، وبيت مضيِّف النبى أبى أيّوب الأنصارى، وفى الوقت نفسه يعكفون على حفظ آثار اليهود فى خيبر وغيره، حتى بيت كعب بن الأشرف ذلك اليهودى الذى أهدر دمه رسول اللَّه، وقتل بأمره غيلة باسم الحفاظ على الآثار التاريخية.

ثمّ إنّ القاضى ابن بليهد قد أعوزته الحجّة فتمسّك بكون البقيع مسبلة موقوفة، وأنّ البناء على القبور مانع عن الانتفاع بأرضها.

سبحان اللَّه ما أتقنه من برهنة؟ من أين علم أنّ البقيع كانت أرضاً حيّة وقفهاصاحبها على دفن الأموات؟!

ومن أراد أن يقف على حال البقيع، وأنّه لم يكن فيها يوم أُعدّت للتدفين أىّ أثر من الحياة، فليرجع إلى كتاب «وفاء الوفا».

آخر ما فى كنانة المستدلّ:

ذكر البخارى فيصحيحه فى باب كراهة اتّخاذ المساجد على القبور الخبر التالى:

لمّا مات الحسن بن الحسن بن على ضربت امرأته القبّة على قبره سنة، ثمّ رفعت، فسمعواصالحاً يقول:

الأهل وجدوا ما فقدوا؟ فأجابه الآخر: بل يئسوا فانقلبوا «(۱)».

إنّ هذا الخبر لوصحّ فهو على نقيض المطلوب أدلّ، فهو يدلّ على جواز نصب المظلّة على القبر، ولو كان ذلك حراماً لماصدر من

۱- صحيح البخارى ۲: ۱۱۱ كتاب الجنائز؛ السنن للسنائى ۲: ۱۷۱ كتاب الجنائز.

ص:۸۳

امرأة الحسن بن الحسن علیهما السلام، لأنّه کان بمرأی ومسمع من التابعین وفقهاء المدینة، ولعلّها نصبت تلک القبّة لأجل تلاوة القرآن فی جوار زوجها وإهداء ثوابها إلی روحه.

وأمّا قول الصالح فهو أشبه بقول غیر الصالح، کما أنّ الجواب أیضاً مثله، لأنّه بصدد الشماتة علی امرأة افتقدت زوجها وهی مستحقّة للتعزیة والتسلیة لا الشماتة، لأنّها لیست من أخلاق المسلمین، ولم تکن المرأة تأمل عودة زوجها إلی الحیاة حتی یقال: إنّها یئست، بل کان نصبها للمظلّة للغایات الدینیة والأخلاقیة، والشامت والمجیب کان من أعداء أهل البیت، والعجب أنّ البخاری ینقله ولا یعلّق علیه شیئاً!

تری هؤلاء الأغبیاء یدمّرون آثار الرسالة وهم یتمسّکون فی ذلک برکام من الأوهام، ویسخرون من الذین أظهروا حبّاً لأهل بیت رسول اللّه الذین أذهب اللّه عنهم الرجس وطهّرهم تطهیراً، وفرض مودّتهم وولاءهم وقال: «قُلْ لَاأَسْأَلُکُمْ عَلَیْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِی الْقُرْبَی» (الشوری/ ۲۳).

إلی هنا تبیّن أنّه لیس للقوم دلیل، بل ولا شبهة علی حرمة البناء علی القبور، وإنّهم لم یدرسوا صحاحهم ومسانیدهم حسبما درس السلف الصالح.

الحمد للّه ربّ العالمین

تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فی سَبيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علیّ بْنُ موسَی الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنـادِرُ البِحـار – فی تلخيص بحـار الأنـوار، للعلاّمـة فيض الاسـلام، ص ۱۵۹؛ عُيونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّيخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائميّة" الثّقافیّ بأصبَهانَ – إيرانَ: الشهيد آية الله "الشمس آباذی" – رَحِمَهُ اللهُ – كان أحداً من جَهابذة هذه المدينة، الذی قدِ اشتهَرَ بشَغَفِهِ بأهل بَيت النبیّ (صلواتُ اللهِ علَيهِم) و لاسيَّما بحضرة الإمام علیّ بن موسَی الرِّضا (عليه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرجَهُ الشَّريفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درايته، فی سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجريّة الشمسيّة (=۱۳۸۰ الهجريّة القمريّة)، مؤسَّسةً و طريقةً لَم يَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَی و أحسَنِ مَوقِفٍ كلَّ يوم.

مركز "القائميّة" للتحرِّی الحاسوبیّ – بأصبَهانَ، إيرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجريّة القمريّة) تحتَ عناية سماحة آية الله الحاجّ السيّد حسن الإمامیّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّيجی الحوزات العلميّة و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، فی مجالاتٍ شتّی: دينيّة، ثقافيّة و علميّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثَقافة الثَّقَلَين (كتاب الله و اهل البيت عليهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزيز دوافع الشَّباب و عموم الناس إلی التَّحَرِّی الأدَقّ للمسائل الدّينيّة، تخليف المطالب النّافعة – مكانَ البَلاتيثِ المبتذلة أو الرّديئة – فی المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوتريّة)، تمهيد أرضيّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافيّةٍ علی أساس معارف القرآن و أهل البيت –عليهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطّلاّب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِج العلوم الإسلاميّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشّبُهات المنتشرة فی الجامعة، و...

- مِنها العَدالة الاجتماعيّة: التی يُمكِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحديثة متصاعدةً، علی أنّه يُمكِن تسريعُ إبراز المَرافِق و التسهيلاتِ – فی آكناف البلد - و نشرِ الثّقافةِ الاسلاميّة و الإيرانيّة – فی أنحاء العالَم - مِن جهةٍ اُخرَی.

- من الأنشطة الواسعة للمركز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ كتبٍ، كتيبة، نشرة شهريّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقيقيّة و مكتبية، قابلة للتشغيل فی الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثّلاثيّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّكة و... الأماكن الدينيّة، السياحيّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتی "القائميّة" www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضيّة، الخَطابات و... للعرض فی القنوات القمريّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمیّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعيّة، الاخلاقيّة و الاعتقاديّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسيم النظام التلقائیّ و اليدویّ للبلوتوث، ويب كشك، و الرّسائل القصيرة SMS

ح) التعاون الفخریّ مع عشراتِ مراكزَ طبيعيّة و اعتباريّة، منها بيوت الآيات العِظام، الحوزات العلميّة، الجوامع، الأماكن الدينيّة كمسجد جَمكرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفيذ مشروع "ما قبلَ المدرسة" الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِكين فی الجلسة

ی) إقامة دورات تعليميّة عموميّة و دورات تربية المربّی (حضوراً و افتراضاً) طيلة السَّنَة

المكتب الرّئيسىّ: إيران/أصبهان/ شارع"مسجد سيّد/ "ما بينَ شارع"پنج رَمَضان "ومُفترَق"وفائى/"بناية"القائميّة"

تاريخ التأسيس: ١٣٨٥ الهجريّة الشمسيّة (=١۴٢٧ الهجرية القمريّة)

رقم التسجيل: ٢٣٧٣

الهويّة الوطنيّة: ١٠٨۶٠١۵٢٠٢۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكترونى: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتى: www.eslamshop.com

الهاتف: ٢۵-٢٣۵٧٠٢٣- (٠٠٩٨٣١١)

الفاكس: ٢٣۵٧٠٢٢ (٠٣١١)

مكتب طهرانَ ٨٨٣١٨٧٢٢ (٠٢١)

التِّجاريّة و المَبيعات ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩

امور المستخدمين ٢٣٣٣٠۴۵(٠٣١١)

ملاحَظة هامّة:

الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شَعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنّها لا تُوافِى الحجمَ المتزايد و المتّسعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجّى هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّى بالقائميّة) و مع ذلك، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفِّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم - فى حدّ التّمكّن لكلّ احدٍ منهم – إيّانا فى هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالى؛ و اللهُ ولىّ التوفيق.